

الثقافة

AL-THAQAFa

العدد ٢٧٩ : ٩ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٣ - ٢ من مايو سنة ١٩٤٤
الطبعة السادسة

فهرس العدد

صفحة	مقالة
١	شؤوننا العامة ... : (٥٥٥) ...
٤	حديث العروة ... : الدكتور أحمد زكي بك ...
٨	ذكرى ابن زيدون (قصيدة) : للأستاذ حسن طاطا ...
٨	ولدي (قصيدة) : علي جليل الوردى
٩	حول مستقبل الأدب العربي : للأستاذ أحمد أمين بك ...
١٢	الحط العربي : مزاهة وعبوة : للدكتور عبد الوهاب عزام
١٦	السجون في مصر في العصور الوسطى ... : محمد مصطفى زيادة
١٨	الحاليسة ... : فلاح حسين ...
٢٢	حمار مراب (قصيدة) : للأستاذ محمود القسوق ...

شؤوننا العامة

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

يجب أن نغير فيه لإصلاح أحوالنا والنهوض ببلادنا ،
ولكننا مع هذا نتقدم ببطء في هذا السبيل . فما السر في ذلك ؟
من الحق أن الحرب الحاضرة من العوامل الهامة
التي عاقت تنفيذ كثير من المشروعات النافعة ، وحالت دون
استكمال الوسائل الضرورية لذلك ، كما أنها خلقت مشاكل
عارضة تستنفد كثيراً من جهود الحكومة ونشاطها ،
وتعطل السير الطبيعي في كثير من النواحي .
ومن الحق كذلك أن الحكومة أصبحت تضطلع
بأعباء كثيرة لم تكن تضطلع بها الحكومات من قبل ،
وأصبحت برغم منها مالم يرجع من الحكومات فيها مضي
من العقود ، فلم تدمهمة الحكومة أن تحكم بالمضى الضيق
الذي ينطوي تحت هذا القبط ، بل أصبحت مهمتها مهمة
رب الأسرة برمي شؤون أسرته كلها . فحين لا نستغنى
منها الآن بأن نحصن الأمن ، ونوفر العدل ، ونسكن من

تتيح لنا الحياة الطبيعية في كل عام فرصتين نعرض
فيهما شؤون الدولة جميعاً عرضاً شاملاً ، الفرصة الأولى
بعد أن يلقى خطاب العرش ونوسط فيه الحكومة سياستها
العامة ، ونجعل ما اعترفت القيام به من مشروعات ،
والفرصة الثانية حين نعرض الحكومة ميزانية الدولة ونقدم
لها بيانات تفصل ما اشتملت عليه أبواب إزادتها
ومصارفها ، وتوضح الأسس التي بنت عليها تقديراتها .
وفي كلتا الفرصتين يختلف على منبري المجلس شيوخ الأمة
ونوابها من مؤيدي الحكومة ومعارضها فيقنطلون
شؤوننا العامة من كل جوانبها ، وبدل كل ذي رأى عما
لديه من مقترحات ، وما تجمع لديه من مخزات الخبرة وطول
التفكير . والذي ينتج ما يقال في البرلمان في تلك المناسبات
وغربها من الجلسات يحس بأنها لا يتقصنا إدراك مواطن
الضعف في حياتنا العامة ، ولا تنقصنا معرفة الطريق الذي

وبسبب اتساع أعبائها وازدياد المطلوب منها دون أن يقابل ذلك الاتساع السكاني في مواردها ؛ ولكننا مع هذا نرى في الاستطاعة أن نصل إلى قابتنا في زمن قريب ، إذا أحسننا رسم الخطط الدقيقة لسير نهضتنا ، واسطننا في تنفيذها الأساليب الحديثة التي نجحت نجاحا باهرا في أمثالنا في كثير من الظروف .

أول هذه الأساليب وأبلغها أثرا في النجاح «التركيز» . وفي الحياة المادية أمثلة كثيرة تبين ما يفعله التركيز وما يحدنه من أثر قوى . فالشمس تشع ضوءها وحرارتها فتقع على الأجسام هيئة رفيقة تدفئها ولا تحرقها ، ولكنك إذا اعتزست تلك الأشعة بمدسة نلها وتجمع متفرقا في بؤرتها ، أحرقت ما يكون في تلك البؤرة من مادة قابلة للاشتعال . والطر يسقط على الجبال قطرات متفرقة ، فإذا حصر في مسالك ضيقة تجمعت منه سيول جارفة تفيض منها الأشجار والأشجار إذا خرجت من أنف من الجبهات للبرق الغرقاء ووجهها في الماء فقيها ، أصاب كلا منهم جنبيه لا يكفيه إلا حبة بندقية واحدة . ولكنك إذا وزعتها على عشرة قراء كان يصيب كل منهم مائة جنبيه ، وهو مبلغ يصلح أن يكون رأس مال يقوم به بعمل يدبر عليه الرزق ما عاش وبكفيه مؤونة الانتعاش لإحسان المحسنين على الأيام .

وفي الحرب الحديثة تحل نجاح مبدأ التركيز على أروع صوره . فالقوى الموزعة على عدة ميادين يذمف أثرها جميعا ولا تنال من خصومها مثالا ؛ ولكن تركيز القوة في نقطة وتوجيه الضربة القوية في ميدان محدود ، يحقق الظفر ويهدد السبيل لضربات جديدة في نقط أخرى .

ونحن إذا رحنا نوزع قوانا وجهودنا على مختلف الأعمال ، لم نتحدث في أيها أثرا يسنا ، ولم نبلغ منها مبلغا كبيرا ، ولكننا إذا حصرنا كل تلك القوى والجهود في دائرة محدودة نجحنا في إحداث تغيير كامل واضح الأثر ، وفرغنا منه نهائيا بغيره من الأعمال ، نالجه بنفس القوة

مشروعات الري والصرف ، بل نطالها عنا ذلك بأن نطعم كل جائع ونكسو كل عار ، ونسالج كل مريض ، ونعلم كل جاهل ، وتوجد العمل لتسكن عامل ، ونغني كل فقير ، ونهدي كل سائر ، وتأخذ بيد كل عاثر ؛ ونطالها بأن ترق أدوافنا ، ونهذب أخلاقنا ، وتوفر لنا وسائل الرياضة والموهبة والتسلية ؛ ونحن نطالها بأن نقوم على تدعيم الإنتاج القوي وتقويته ، تنولاه ورعايتها ونحوطه بناتيتها ، فتشجع الصناعة وترقى الزراعة وتنشط التجارة ، وتقوم بنفسها في ذلك عما تقصر عنه جهود الأفراد من واسع المشروعات . ونحن نطلب إليها أن تسكن لنا من وسائل الدفاع ما يحمي كياننا ويؤمن استقلالنا . وبالاختصار نحن نطلب إليها أن تقوم على كل شأن من شئوننا حول أو سفر ، نطالها بهذا كله ، ونحملها ما تحمله الحكومات الحديثة في أرق البلاد من تبعات ، ولا نحسب حساب ما يقتضيه ذلك من نفقات وجهود ووقت وما يتلقاه عليها من فروض قد لا تسخو نفوسنا بذلها ونحن في بلادنا نرى في أنه لا توازن بين آمالنا ومقدورنا ، ولا استطائنا بل ما نطلب إلى الحكومة أن تحققه وما نتحمله في مقابله ذلك من تضحية .

ولا جمال في حرص الحكومة على أن نجيب أكثر ما نستطيع من تلك المطالب ، ولكن ما بيني وبينها من المسال والجهد بعد الوفاء بحاجية الأعمال القائمة لا يكفي لتحقيق هذه الأعباء الجديدة كلها ، بل هو قد لا يفي ببعضها ، فلا حيلة لها إلا أن توزعه على وجود الإصلاح الجديدة ، فإن لم يسبها منه وائل فطل ، وقد لا يحس بعض الأعمال منه إلا رشاش يسيل الحلق ولا يبلغ الجوف فلا يتوقع علة ولا يلقى ظمأ .

ونحن نقدر تماما هذه الاعتبارات المعابية التي تحد من مقدرة الحكومة على استحداث المشروعات الجديدة ، ونرى علرها فاعلا في ذلك بسبب هذه الظروف الحربية الشادة ،

بالأساسي الذي ينتفع به ما يأتي بعده من الأعمال ، ويقدم الأهم على ما يقل عنه في ذلك .

وبل « التركيز » في حسن الإنتاج التجميعي والتعاوني ، ولعلك تدرك ما أقصد إليه من ذلك إذا رجعت إلى الطريقة التي كانت تنفذ بها بعض الأعمال العامة في بلادنا ؛ فقد كانت مصالحة التنظيم تصرف بعض الطرق وتوسيعها بالسكدم ، ولا تكاد تفرغ من ذلك حتى تأتي بمصالحة الجارى بعد ما سوت وتعيد ما أساحت ؛ وقد تنتهي من ذلك وبعد إصلاح الطريق ، ثم تحيى شركة المياه أو النور لنفسه من جديد ، ولو أن تلك المصالح نسقت جهودها ، وقامت بأعمالها جميعا بالتعاون لوفر كثير من الجهد والوقت ، كذلك نحس أن وزارات الحكومة المختلفة ، بل والمصالح المختلفة في الوزارة الواحدة ، قد تقوم بأعمال متكررة متشابهة ، وقد تسير فيها على أساليب متباينة ، مع أنها لو نسقت خطاها وتعاونت جميعا في تحقيق الهدف المشترك ، لكانت نتائجها أتم وأكمل وأكثر اقتصادا .

ولذا أريد تنفيذ برامج الإصلاح الرسومية سواء ركزت في إقليم واحد أو نوع واحد من النشاط ، فيجب أن يكون أساس ذلك تعاون كل قوى الحكومة في التنفيذ ، وتوحيد قيادتها جميعا تحت إشراف هيئة تنسيق قوية تغتزل الجهود المتكررة ، وتوجه الجميع لتنفيذ الخطة بدقة في كل الميادين .

والمنصر الثالث من عناصر الأساليب الحديثة في تحقيق المهمة هو الاستقرار والثبات . ولست بحاجة للقول بأن كل نهضة لا تعظم لهذا المنصر يقضى عليها بالقتل والمنصر . فالمخطط الرسومية إذا قطع في تنفيذها شوط ثم طرأ على الأحوال من التغيير ما يقلبها رأسا على عقب ، أو بدا لأولى الأمر أن يفتروا في مواصلة تحقيقها ، والمنصرف عنها لتغيرها تصبح جهدا ضائعا وقوى مهددة . فلا مفر لنا [البقية في ذيل الصفحة التالية]

الركيزة الثلاثي الشامل الباقي الأخر .

واستطيع أن استخدم التركيز في إصلاح أحوالنا والنهضة بشئونا على طريقتين : الطريقة الإقليمية ، والطريقة النوعية .

في الطريقة الإقليمية يكون برنامجنا أن نخصص لكل إقليم أو جزء من البلاد زمنا نقوم فيه بالإصلاح الشامل لهذا الإقليم من كل الوجوه . فنستصلح البائر من أراضيه ، ونستكمل مشروعات الصرف والري فيه ، ونزوى زراعته ، وندخل عليها أحدث الأساليب ، وزد من ماله من برك ومستلزمات ، ونوفر مياه الشرب الصالحة لسكل قراه ، ونشقى فيه المستشفيات والوحدات العلاجية الكافية ، ونعمم فيه التعليم ونبنى معاهد التعليم الكافية له ، ونحسن طرق مواصلاته ، ونعمم النظام الزاواني في كل واديه ، ونشقى المصانع الملائمة لطبيعته ، وننتفع بمصادر القوة فيه ، ولا ندع شأنا من شئونه الاقتصادية والاجتماعية إلا نتولاه بالطريقة والتدعيم .

وفي الطريقة النوعية يكون برنامجنا تحقيق كل نوع من أنواع النشاط العام في كل أنحاء القطر في زمن معين ، حتى إذا فرغنا منه انتقلنا لنوع آخر ، فيكون برنامجنا مثلا في فترة معينة إتمام مشروعات الري والصرف أو استغلال مصادر القوة ، وإنشاء مراكزها أو إنشاء الصناعات الضرورية للبلد ، أو تعميم التعليم ، أو استكمال ما تتطلبه المشروعات الصحية في البلاد ، أو تحسين طرق المواصلات أو استصلاح الأراضي البور ، أو استغلال الثروة المعدنية في البلاد ، أو ترقية الزراعة وإدخال الأساليب الحديثة فيها . ولكل طريقة مزاياها ، وقد جربت كلتا الطريقتين أو مزيج منهما في بعض البلاد ، وكتب لها جميعا النجاح .

وأيا كانت الطريقة التي تختارها فإن نجاحها يتوقف على رسم الخطة الكاملة لهذه الأعمال جميعا ، ودقة التقدير في توقيت تنفيذها ، وحسن التنظيم لتسلسلها ، بحيث يبدأ

حديث الغرفة

للدكتور محمد زكي بك

الترفة التجارية البريطانية ، هي غرفة تجارية ككل الشرق . ولكن لها مركزاً ممتازاً بسبب تلك الصفة الأخيرة التي تلتحقها . ذلك لأن الإنجليز تجار بالطبع . ولولم يكتفوا كذلك لسكانهم بالتمتع ، وقد قضوا القرن الماضي والساني وما قبلهما عارسون التجارة بين الأمم عبر البحار والمحيطات . فهم في شئون الاقتصاد لهم خبرة لا يجاريهم فيها غيرهم من الأمم . والترفة التجارية البريطانية هذه لها سبب آخر للتميز ، ذلك بأنها في مصر ، فهي تمثل الصوالح البريطانية ، من تجارية واقتصادية ، في هذه البلاد ، خليفة بريطانيا . فالآراء التي تصدر من تلك الغرفة آراء لابد أن تفتح لها الأذان وسماها .

وقد جرى التقليد بأن يكون لهذه الغرفة تقرير سنوي في الملأ كل عام ، يُعقد بمضاء رئيسها ويتناول فيه رأياً ورأى الغرفة في الحالة الاقتصادية المصرية . وكان رئيس

من أن توفر القناعات السكانية لاتصال سير النهضة وسلامة واجتماع من التفاعل والاضطراب وتنازع الأهواء .

وسبيل ذلك أن تكون برامج النهضة والإصلاح برامج قومية ، ترتفع فوق الخلافات والمنازعات ، ويؤمن بها الجميع ويتعاون جميعاً على تحقيقها . ومن الخير أن يشترك في وضعها ورسم تفاصيلها الخبراء الفنيون وذوو الرأي على اختلاف ألوانهم ومشاربهم ، وأن تصير دستوراً ثابتاً لا يمس كيانها ، ولا يتعرض بحال للتغيير والتبديل .

ولعلنا حين نشترك في هذا الهدف الواحد ، ويتفق كلها على هذا البرنامج المحدد ، وتأخذ في العمل المنتج النظم للنهوض بدلا مما أنه يكون ذلك كفلا بتأليف الطليع المتناثرة ، وقرب البيوت المتباعدة فلا يكون لأحد شغل بغير مصلحة ففسد الحرية الخالصة . (٥٠٠)

هذا العام ، وصاحب التقرير ، المستر شرفيه ، وهو كويتي الأب ، ولكنه شرقي الوطن ، فقد قضى في الشرق نيفاً وعشرين عاماً بما كانت أكثر من نصف عمره . وهو رجل قد لا يسمع الجمهور المصري كثيراً باسمه ، ولا تتصل الجرائد دائماً برسمه ، لأنه يعمل في جوف من الاقتصاد صامت ، وأرباب الاقتصاد في أيديهم مقاليد الأمور ، ما يفلن منها . وهم أهل حصافة ينظرون إلى هذه الدنيا كما ينظرون إلى الحوزة ، فيقبلون إليها الباطن ، ويتركون تغييره فشرها الظاهر .

والستر شرفيه فوق هذا رجل عظيم وسدين ذاكر . وقد تناول في تقريره السنوي عن مصر أمورا لها

خطر كبير

في تناوله أمر الزلازل في مصر ، فقال إن علاجه في تقسيط الأوقات والحاجات تقسيماً شاملاً كاملاً ، وقال إن هذا هو الحل في هذا البلد « لأن الشرط الأساسي لذلك هو وجوده » وهو رغبة السهول في هذا التقسيط رغبة صادقة ، واستعداد للتعاون في إنجازها . وهذه كلمة

لا شك صادقة ، بالتعاون في مثل هذا إنما هو مظهر من مظاهر الوعي الاجتماعي الذي لا يكاد يكون له في مصر وجود .

والوعي الاجتماعي ضائع لأن العدل الاجتماعي مجيب ، وحيث لا عدالة يتصرف الناس إلى استغلال من يحقهم بالحق وبالباطل ، كل على مقدار القوة في ذراعه والطول في باعده . وزيد في شياخ العدل الاجتماعي ، وجود حلوائف كبرى في مصر غير مصرية ، ولكن بأيدى ثروة مصر ، والوعي الوطني عند هؤلاء ، ليس على أهواء ، وصاحب الثروة أبعد الناس في وقت الضائقة عن وهي ألبان في يجرمه ما اعتاده من وسعة الثراء ، لا سبيل في بلد يباد لمطالبي صيد في عدل أو في غير عدل .

وذكر المستر شرفيه في هذا الصلة طريقة استحداثها البريطانيون في تحكيزهم للمسلمين في البلاد ، هي الطريقة

في عاصمة وإنيث الآخر في عاصمة ، هذه مشرفة
وتلك مغربة .

ولا شك يتصل بهذه السياسة التي تبنتها ما يجري
في بلدان الشرق اليوم من مؤتمرات ، فمن مؤتمر ذراعي
إلى آخر حال ، إلى تلك ورابع ، لا تحسب أحدها سوف
يخرج عن دائرة الاقتصاد . ومعنى هذا أن دائرة الثقافة
تترك أمورها لتلك الأمم تتجمع إليها بدافع من نفسها .
ولا شك فيها سيكون لهذه المؤتمرات من نجاح ، فقد آمن
اختيارها ، ولو في الصعيد الواحد ، أن الداعي غير عمري
ولا نفعي . وآمن نجاحها أن الأعضاء سواسية فيها
دُعوا إليها ، وأنها استشارة لا جبر فيها . فإن احتفظ
أعضاؤها بحرية العمل ، واقتصرت بريطانيا على النصيحة
واختلعت التية فيها ، وهي لا شك مقتصرة عليها غلبة
فيها ، أنتجت هذه المؤتمرات أداة دافعة للعمل الناجح ،
ومستساة لحسن تفاهم موطنه . مهج القلوب لا يعلون
الأوراق

الإمانيات تبذلها الحكومة في سبيل تخفيض أسعار السلع
حيث السلع أساسية . وضرب مثلاً تلك السكر ، فقال
في صراحة شائقة : « إني أعتقد أنه لم يكن هناك حاجة في
رفع سعر السكر » ، ولكنه لم يذكر سبباً . وقال عن
الكبروسين ، إنه ما كان يجب أن يزيد ثمنه ، وإن الزيادة
المطلوبة في تكاليفه كانت توضع في رفع ثمن البنزين . وهذا
رائد لا شك أقرب إلى مؤساة المفقير . والزام ذكره ،
وأجور النقل في المدن وفي الضواحي ، من الزام وغيره ،
أنكر وضعها .

وعرج السحر شرقه ليا عرج على أذن الاستيراد
والصدور . فقال من الإصدار إن الحكومة أنقصته إلى
حد بالغ ، وإن جدول الأشياء التي يتبع تصديرها يطول
من يوم ليوم ، وإن في هذا خلقاً لحرة التجارة أولاً ، ثم
فيه تضيق لما تصبو إليه مصر من تمتر في سياسة أم
الشرق الأوسط . ثم قال : « إن أم الشرق الأوسط
يجب أن ترتبط أولاً بروابط من التجارة قبل أن ترتبط
بروابط من السياسة . وإن الروابط السياسية لا يمكن
أن تخرج من دائرة الأحلام إلى دائرة اليقظة إلا بما سبقها
الروابط التجارية . وهذه الروابط التجارية لا يمكن أن
تجتمع أطرافها فتتقدم في غير مصر » .

ومن المتع أن ينطلق مثل هذا الصوت في نفس
الوقت في إنجلترا نفسها . فقد كتب السركنت ولويس
في المجلة الأسبوعية ، وهي تصدر في لندن ، يقول عن
الوحدة العربية : « إن أمل العرب في الوحدة أمل حي » ،
وهي كلمة العرب أجمعين مهما اختلفت طرائقهم إليها . وقد
أصاب العرب الحكمة لما تركتوا على الوجهة الاقتصادية
والوحدة الثقافية قبل الوجهة السياسية ، فقد دعوا أن
السيكانيين السياسيين لا يقوم على أساس اقتصاد سليمة
لا يبق طولها . ومصر في اقتصاد الأمم الشرقية سيكون
لها دور هامثل تلعبه لحر هذه الأمم جميعاً » .

خالفي لولعه وإن اختلف اللغزان ، وإن أنبوت الأول

والطوبى لهذه السياسة الاقتصادية ، تزيد القادى
اقتصاداً مما قرر رئيس القرفة التجارية البريطانية . قال :
« ويجب على الحكومة المصرية ألا تترك هذه القيود
تؤثر في خطط الرسملة لجعل مصر عوز الشرق الأوسط ،
ومركزاً هاملاً للبضائع من كل صنف يهرع الجنيران
للشراء . مثله عن طيب خاطر . وفي سبيل ذلك لابد من
احتجاز مناطق تخرج عن الدوائر الجركية ، ولابد من
التيسير للتجارة العابرة أكبر تيسير ، . . إن هذه قرمة
مصر الكبرى في الشرق الأوسط ، ولابد لنا من معونتها
على انتقامها » .

وتزيد نحن فنقول إن هذا كله جميل ، على ألا تكون
القرمة لمصر الأرض ، بل لمصر الناس — المصريين أرومة
وجيلنا . وبحال التعاد في هذا بين مصر وإنجلترا وأمع
تخليار . ولو أن البادئة في هذا واقعة على المصريين ،
والعجشون له غير وعير . . .

ومضى رئيس الغرفة بعد هذا يتحدث عن صناعة مصر ، وما استحدثته الحرب منها . وفي هذا قال : « لقد كثر الحديث عن قلب هذا القطر قطراً صناعياً ، وقيل إن في هذا امتناع التعطل ، ورفع مستوى الحياة ، وانتشار الرخاء ، وإلى أعياد من يحتفلون لمصر مستقبلها أن يعميم رخاء هذه الحرب . فهم في خطر أن ينسوا أن صناعة النسيج نفسها لم يكن حالها أحسن حال قبل الحرب ، رغم حماية جبركية عالية . إن كثيراً من الصناعات التي خلقتها الحرب في مصر قد تبقى إذا جاء السلام ، ولكن ليس لمصرى أن ينسى أن امتناع السفن في الحرب ، ونظام الحصص فيها ، وغير ذلك من القيود ، أسبغت على تلك الصناعات حماية لا تقارنها حماية الجمارك . إن النظرية التي تقول إن الأمم الصناعية القديمة يجب عليها أن تدخل الصناعة في الأمم التي ظلت إلى الآن مصدراً للخامات حتى تستطيع تلك الأمم القديمة أن تروج تجارتها بالتصدير الكبير خارج أخذة في الثلاثين » ، ثم ذكر بصدق أن الحكومة المصرية في طلب المال وقت الرسوم الجبركية ثمة في المائة وأنها إذا جاءت السلم فسوف لا تجد الحكومة من الشجاعة أن تذهب بمصدر للدخل تعودته الخزانة . إلى أن قال : « إن ولاية الأمور لن ينفادوا إلى الثابتة على حماية صناعات يكون في حمايتها رفع مستوى الحياة لدى قوم هم قليلة (يقصد أصحاب المصانع وما بها من عمال) ، ويكون في هذه الحماية إفقار البلاد في مجموعها (يقصد بفسخهم على شراء سلع مصرية بأسعار فوق أسعار مثيلاتها الأجنبية) » . وهذا القول يثل إجمالا رأى الأحرار الإنجليز في حرية التجارة ، وهو رأى يستهدى به ولكنه لا يطبق تطبيقاً أعمى ، ولكل حال أبوسعها . وهذا الرأى لم يره إنجليزاً نفسها من زمن بعيد . هي استخدمت الحماية الجبركية ولم يقل أحد إنها أخطأت ، فكيف يراد من مصر أن تراه وتكون السبابة إليه . ثم إزاء القلة وإفقار

الكثرة ، كيف يكون في الصناعات القومية الكبرى كصناعة النسيج ؟ فهذا النسيج عندنا خاماته ، وعندنا فوق العشرة الثلاثين نليس وعلينا إلباسها ، ولأن نتحكم في أقطانها ، ونمنعها في مصانعنا وأسواقنا خير ألف مرة من أن يتحكم فيها الآخرون عند حاجة الماء . ونحن اليوم لانظر أن مصانعنا في النسيج تكفي حاجتنا ، فلا بد من تعديدها حتى يكون منها الفائض . والعملية في مجموعها لاشك عملية رابحة . وأقول في مجموعها ، أعني منذ أن تيزر بذرة القطن إلى أن يباع النسيج في الأسواق ، مدعوماً إليها آثارها السادية الضيقة الصرفة ، وآثارها الاجتماعية والإنسانية معاً . هذا إلى أن الصناعة الباذنة تكلف أكثر ما يجب ، ولكن ريمان السنوات واستطلاع الأخطاء ، لهما أثر كبير في اختصار النفقات .

وإنجليزاً ، في أمر بنجرها مثلاً ، واصطناع السكر منه ، ماذا صنعت فيه ؟ حته ، جعلت الحكومة البريطانية تالوا لعلها تلتهم الطويلة حتى استقام أمره ووقف على جليل من غير عكاز .

والذي يقال في أمر النسيج في مصر يقال في أمر الحبوب ، فخاماتها مصرية لأن مصر لا بد أن تأكل هذه الحبوب ، ولابد أن تزيد الناشئة فيها حتى تأكل كل هذه الملايين لها ، وحتى تلبس كل رجل من هذه الأرجل الملايين حذاء . والذي يقال في القطن والجلب يقال في كثير غيره مما لدينا خاماته . ولن يضرب المجموع شيئاً في هذه الصناعات الوسيعة الشامة .

والحال غير هذا بالطبع في الصناعات التي ليس لدينا خاماتها ، وأتعدده فأقول حتى تلك التي لدينا بعض خاماتها . فالحديد مثلاً عندنا أكسيد . ولكن لا بد لاختراجه من استغلال الفحم آلاى الأميال . فهذا يجب أن يترتب الرء فيه تربطاً كبيراً حتى يستوثق من أن السالبة لا تروج إلى الحرب وحدها ، ولا تكون إلا للأغراض

المصري ، كما يقول رئيس القرية ، ألا يتبنّى على الأجنبي بكرم ضيافة ، فكذلك ليس للأجنبي أن يتبنّى على المصري بما أسدى . ولتعدّها إذن صفقة تجارية كسب المصري فيها سهماً وكسب الأجنبي فيها أسهماً .

إن مصريين تغلق أبوابها لأجنبي له مكان في اقتصادها وفي تقدمها . فإن كان الأجنبي أستاذ علم ليس عندنا مثله ، فأهلاً وسهلاً . وإن كان رجل طب ليس عندنا نظيره ، فأهلاً وسهلاً . أو كان سامناً ماهراً يأتي ليعلمنا تلك الصناعة والمهارة ، فأهلاً وسهلاً . ولكن كفاناً « جرسونات » وكفاناً بقالين ، وكفاناً صُنْدَاع خور و بُيَاعاً ، وكفاناً خبّازين ، وكفاناً ساسرة ، وكفاناً عمال مخازن أكثر ما عندهم الرطانة وقد وهب الله آباءهم وأمهاتهم لساناً عربياً . كفاناً كل هؤلاء ، وأضراب شتى من هؤلاء . وليس هذا لصالح المصريين بحسب ، بل لصالح هذه السكينة الحاضرة من الأجانب أيضاً ، فقد ضاق بهم ، ويزداد ضيقاً بهم يوماً بعد يوم .

إن الترحم حتى أجهلنا حتى يقوى في بلادها وبشدة . ولست أرى فرقة من وجهة الحسنة بين الرجال والسلع . فليكن المصري بنجرأ ، ولتضعه في حدود المقول حتى يقوى وبشدة ، وعفا الله عما سلف .

وقال رئيس القرية إن امتداد الأجنبي في مصر لا يمتدّ دوائر صغيرة ، وإن الغالب في مصر كراهة الأجنبي . وليتبه ذكر لنا كم من الحب عند السكينة من الأجانب للمصريين . إن الذي أعرفه أن السكينة من المصريين لا تزال على طبيعتها الطيبة الساذجة الأولى . فلم أجد أجنبياً أو أجنبياً في أزمة في طريق إلا امتدت إليه وإليها بالموعة بدكرمة ساذجة . وكثيراً ما وجدت هذه اليد ترفض تقادراتها . وما قدّراتها إلا لأن صاحبها ليس يجيبه فرش يشتري به الصابون . وما الصناعة التي يطلبها مصر إلا لنسل هذه الأيدي حتى تمتد للأجنبي بالموعة كريمة ونظيفة معاً .

الاستراتيجية وحدها ، فإذا جاء السلم كلفت المستهلك أسنفاً أغناها .

إن هذه القاعدة ، قاعدة رئيس القرية ، قاعدة من قواعد الاقتصاد هادية ، ولكنها غير لازمة التطبيق واقتصاد الأمم هو ما هو ، وعلاقة ما بينها هي ما هي . وإلى أن يرتفع العالم بأنعام المحاصيل الزراعية إلى أعنان المنتجات الصناعية ، ليس لأمة زراعية بد من معالجة ما تستطيع من صناعة طلب لأدنى الرزق الإنساني الذي يطلبه الصناعيون .

وهب أن قطن مصر وقحها ، وهما من مُحمّد اقتصاد البلد ، زادت نفقة إنتاجهما على نفقة استيرادهما ، فهل معنى ذلك إلغاء القطن والقمح ، وإلغاء عقولنا ، ونحن الذين نليس القطن ونحن الذين نأكل القمح ؟

إن واجب المنتج تخفيض التكاليف ، وأداة الحكومة في إرغامه هي أبواب الجمارك وأكياس الضريبة عندها . وهي تتحكم في التكلفة الجزئية وخصمها وتضيق أن تتحكم في المنتج على أكثر من وجه . ومن تلك الوجوهات حماية المستهلك — حماية الجمهور — من مصادرة في الأرباح . وبهذا يذهب ما يجتثاه رئيس القرية من إفقار الجمهور .

ويذهب الثقل ، رئيس القرية ، من بعد ذلك ، إلى مسألة استيراد — لا استيراد البضائع ، ولكن استيراد الرجال من الأجانب . ويعتب على الحكومة نظرها الصغير في إغلاق الباب إلا للفتين من هؤلاء . وهو يرى أن يفتح الباب كما كان . وكل الذي ذكره في السطور المنشور ، أن هؤلاء الأجانب أفادوا البلد في تجارتها في الماضي ، فهم لا بد مفيدوها في هذه وفي غير هذه في المستقبل . أما الماضي فلا يتكرر أحد ماجاء المصريون . ولكن لا يتكرر أحد أن التي منه الأجانب ، إن عاد منه قرش على المصريين ، عاد منه قروش على هؤلاء الأجانب في زمن لم تكن عند المصريين فيه كفاية . فإن كان على

ذكرى ابن زيدون

مناسبة مرور تسعمائة سنة على مولده

أَمْ هناك أنرى كذلك أنسى
قبضةً في يد الزمان الوضيع ؟
أَمْ تَرَانِي أَسْتَلْفِرُ الْعَرَبَ لَهَجاً
دَوْماً بَيْنَ شَالِحٍ وَمُضِيْعٍ ؟
أَطْوِي شجون الليالي
يا أُمَّةَ حُسْرَى
وَمِجَاسِدِي الْعَمَالِ
وَالْحُسْنَى الذَّاهِرَا
القدس
عسى ظانها

الحناء الزهرى :

ولدى ...

رشت الهامة من مقاتليك
ودقت المهادن من وجنتيك
وعلمت قلبي معنى الحنان
فقبضت حناناً من مفاتيحك

خدي مشجيداً وملكني الكون في قبضتك !
وقد تخرج « القلب » من راحتي

وقلبي برقص في راحتيك !
وقلبي برقص في راحتيك !

قمر شتاك مستعلماً وجنتيك
فأطقت وأجدي في قمر شتاك

أظنرت أمتابتي سادجاً
وفاسفة الدهر في نظرتيك !

« حُسْنَى » أجبتني عن ذا السؤال
تري أنا أم أنت في بُردتِك ؟

« الكلاطية - العراق »
على مبليل الوردي

بين شهدي ولوعتي وولوعي
أبها الشعر من إليك شفي
وخيالي قد ضل في ظلمة الميم
ل شقيقاً بقلبي المصدوع
أبها الليل أكم بصر يدغيك الش
وق ما بين أعين وصلوع
فاذا القلب شملة من كليب
وإذا العين نتجة من دموع
أبها الليل أكم بنى بك الوع
بم أنشيد توبه ورُجوع
يتسلى من المهاد وبهوى
نحو واد من الكرى والمجوع
فتلوح الذكرى على أفقها الم
حور وهي بالحناء الفجوع
فاذا بالزؤاد يهفو إليها
ثم يبيك مثل الوليد الرضيع
أطوي شجون الليالي
يا فكري الحيري
إلى المصور الخوالي
وما لم تذكرى

وارقص في مواكب الفجر نشوي
واسبح في سنا الشعاع ذوي
وتقبض في رياض « قرطبة » أثره
واغسل ثوبي بالصبح فتوح

أندسى من حلى « ابن زيدون » شعراً
سأبلى الحرح بغيره الصنيع

نشوات الصبا تفرق فيه
كندى الفجر فوق زهر الربيع

ولهيبة الشكوى يشع عليه
موجة من طهارة وخشوع

لدى القصر عند ملك « بن عبد
أد « بيتي شجون الزؤاد الوجيع

وسألى من « أبي الوليد » « يا
بيليقة » في مكانة الزفوع

ذهب الدهر بالولك واللمنا
لك وأمسى الجميع غبر جميع !

أطوي شجون الليالي
يا فكري الحيري

إلى المصور الخوالي
وعالم الذكرى

وعلى شاطئ « بئر ناطقة » الح
راء « في وجهه السحيق النبيع

أعنى بالجد من حمة العكر
ب وإن لم يكن بها من صبيح

تري الصخر يلمن الزمن الوعد
د وبأبي الشكوى لتلك الجوع

وتبع شعري ! بكاد يصرخ فيه
مارد الكبر يبغيضة للخصوع

هيه يا شعرا تلك أندلس الإند
لام في عزها السرى الرفيع

أأنادى الترى فتنتفض الأثر
ضوء تروى أخبار تلك الربوع ؟

ضحى الاسلام

يباع كل جزء من أجزائه

بأربعين قرشاً

حول مستقبل الأدب العربي

عاد أبحي الأستاذ توفيق الحكيم إلى الرد على " وكان في هذه المرة متصفاً في تحديد موضوع النزاع ، قوياً في عرض وجهة نظره ، والتدليل عليها ؛ ولكن - مع هذا - أراي مخالفاً له في كثير مما عرض .

وخلاصة رأيه " أن الفنان فوق المصلح ، والأدب الأدوري بلغ مبلغه بقيمته الفنية ومزاياه الأدبية ، لا يفصل ترويه في معترك الحركات الإصلاحية ، وأن الفنان إذا كان فناناً ومصلحاً خلد فنه ، ومات إصلاحه ، بل ربما هزأ التقاد بأرائه السياسية والاجتماعية " . وأخذ على ما أذهب إليه من تقليل قيمة الأدب الذي يدور حول النزعات الغرامية ، والمحلب العام ، وأبان أن هذا خطأ ؛ فحكم طهرت ومزقت كتب للمصلحين ، وخلدت قصة غرام وفصيدة غزل " كروميرو وجولييت " ، و " عادة السكامليليا " الخ .

إلى أوافقك تمام الموافقة على أن الأدب أخذل من العلم ، ومن النظريات السياسية والاجتماعية ، فالإياد هومبروس بقيت لها قيمتها ، وذهب العلم الذي كان يجانبها ؛ وقصائد التلي خللت والعم الذي كان يعاصرها لم يند صالحاً لشيء إلا لتأريخ العلم ، والملة في هذا أن الأدب متصل بالمسافة ، والمواطف بطيئة التغير ، وزعاتها الأساسية باقية على حالها كما هي ؛ أما العقل ففي تغير مستمر ورق مستمر ، فما يصلح له أمس لا يصلح له اليوم ، وما يصلح له اليوم لا يصلح له غداً ؛ ولكن ألا ترى متى أن مقياس الأفضلية بطول الزمن مقياس غير صحيح ؟؟ ومثل من يفعل ذلك مثل من يفضل حياة الحيوان الباقية للمستمر على حياة الإنسان للتغيرة أبداً ، ويفضل الحجر الصوان الخالد على الإنسان المائت ؟؟ إن طول الزمن

ليس مقياساً صحيحاً في المفاضلة بين الأشياء ، فقد تكون دقائق ممدودة مليئة بالسعادة خيراً من عمر طويل مديد لا قيمة له ؛ ويقاء المواطف على حالها هي التي ترمينا بويلات الحرب إلى الآن ، ورق العقل هو الذي يدعو إلى إبطال الحروب فلا تستجيب له المواطف العنيدة الرأكدة . على أني أخالفك في أن العلم القديم قد ذهب ، والنظريات السياسية والاجتماعية في المصور الماسية قلدت ؛ إنها لم تنف بل هي خالدة خلود الأدب ، ولكنها خالدة فيها وكذلك من نظريات جديدة ، وباقية في هيكل الإنسانية كما في آدم في ذريته .

وبعد ، ألا تراء بعدنا عن موضوعنا إذ نقارن بين الفن والإصلاح ، فليس هذا هو موضوع كلامي ، وإنما موضوع كلامي الثقافة بين فن في إصلاح وفن في إفساد ؛ فالفن لم يوافق كلامي . وإذا كان الأدب - على العموم - باقياً خالداً ، هل يخلج الأدب المصلح خير من أن يخلد الأدب القديم .

http://Archivebeta.Sakhril.com

أما مسألة النزعات الغرامية ، والمحلب العام ، وأنها كانت مصدراً لأعلى طبقات الفن ، وأن " روميرو وجولييت " خلدت حيث قنيت غيرهما من أدب يدعو إلى القسيلة ، وأن عادة السكامليليا لدوماس الصغير عاشت على الزمن حيث مائت أكثر رواياته الأخرى التي طالع فيها موضوعات اجتماعية كلها جدد وحسن قصه ، قرأ في فيها ما قلت ، من أن القرام والمحلب صالح كل الصلاحية ليسكون موضوعاً لفن عظيم ، واستشهدت لذلك ببن أبي نواس في الأدب العربي ، وقررت أننا حين نقيس النتائج الأدبي بالمقياس الفني البحت يجب ألا نميز بين موضوع يدعو إلى القسيلة وموضوع يدعو إلى الرذلة ، ولكني أضقت إلى ذلك أنه إذا تساوى في الفن موضوع أخلاقي وموضوع غير أخلاقي ، فالأول أولى ، ويجب أن يكون أولى .

ويستمد على ذلك في حرارة أدبه ، وبكره أن يستغفر عنه في مناحي العقل والاجتماع لأنها هادئة لا توران فيها ، باردة تحتاج إلى حرارة قوية من الكاتب ، ومهارة كبيرة في الفن ؛ فهو يسترخض العاطفة الهائجة ، لأنها لا تتطلب منه كبير جهد ، ولا عظمة فن ، ويستريح إلى بساطة العاطفة لأن العقل معقّد ، وظواهر المجتمع مرشّكة ، فهو يستقيم إلى الراحة ، ويميل إلى الشهرة في سواد الناس .

إن أدب الأمة الحنى ما صور الأمة وصوّر الحياة في مختلف نواحيها ، وكما أن الحياة الحقة ما انسجمت فيها نواحيها ، فكذلك الأدب الحنى ما انسجم إنتاجه ؛ فإذا كان أدب أمة واسعاً عريضاً في الحب والعلاقة الجنسية ، ضيقاً كزاً فيها عدا ، فهو صورة مشوّهة لا تمثل الواقع . إلى حياة الناس درجات ، وعقلياتهم درجات ، وعواطفهم درجات ، فيجب أن تمثل الأدب هذه الدرجات ويكون في الأدب الرفيع الرفيع ، والوسط للوسط ، والوضوح للوضوح ، أما أن يكون الأدب كله في العلاقة الجنسية فتشكّل للإنسانية ، وضرب على وتر واحد في عودى أوار .

إنكم تقررون أن كل شيء صالح لأن يكون موضوع أدب إذا رددتم على من يطالبكم بحاجة في الأدب جديدة ، ثم إذا أخرجتم أدباً لم تخرجوه في كل موضوع ، ولكن في موضوع واحد هو الحب والغرام ، فدعواكم في ناحية ومملكم في ناحية !!

وطيفة الأدب الحقة أن بتنى نواحي الإنسانية ، وورقى مشاعرها ، ويميل من مداركها ، ويوسع ألقها ؛ بأن يمتد في القارى تفكيراً قوياً ، يشعرو بهيال لم يكن يلتفت إليه ، أو يحرك شفتيه وعقله على رجل بالنس أو أمة بالنس ، أو يلقى نوراً على ظلمة ، أو ينجي مواتاً ، أو نحو ذلك ؛ أما إذا هو استخرج منك الضحك على بئس لبؤسه ، أو حملك على الهكم على مصالح

إن الأدب يجب أن يكون صورة للزغرات كلها ، السامية منها والوضيعة ؛ أما أن يكون كله أو أكثره تصويراً للعلاقات الجنسية فتقر في الأدب ، وضيق في الأفق ؛ إن هذه الكتلة القليلة في أدب العلاقات الجنسية راجع إلى استفادها على عنصر غريزي يحرك المواقف ، ويشعر فيه الكاتب مع القارى بالجواب ؛ ولكن هل هذا كل شيء في الدنيا ؟ إن لأعذر في هذا من يؤثفون لفسر ح أو للسينا ، لأن غرضهم الأول الناحية التجارية ، وتنبؤ ما أنفقوا على الإخراج ، والحرم على ربح بموئس جهودهم ، ولذلك يختارون العلاقات الجنسية موضوعهم لأنها أكثر استعداداً للجواهر ، وأكثر نداء للبرزة المشتركة ؛ ولكن لا أعجز الكاتب السبيل ذا الفرض السامى في أن يجعل سلعته من هذا النوع المؤلف الكثير في السوق ، ولا ينتج سلعته غاية سامية قابلة في الأسواق . كم في الإنسان من عواطف مختلفة ، وكم فيه من مناح عقلية ، وكم في الجسم من مظاهر تستلفت نظر الفنان ، أصبح مع كل هذا أن يكون أكثر من تسعين في المائة من النتاج الأدبي مقلداً في الحب ، ثم تقول لي إن نتاجه أحد ؟ إنا خلقه دون سواء ثقافة الإنسان وصو . ثقو ، وميل الأدباء إلى مراعاة سواد الناس الذين ليست عقولهم في رؤوسهم ، ولكن في شمولهم . إن الأدباء بهذا الصنيع يسرون خلف الناس ، لا يهدون الناس ؛ إنهم يهملهم نواحي العقل والمواقف السامية ، وأنهم أكرم في العلاقات الجنسية ، يصرفون الدهار بالخرم ، إنهم يعيشون مع سواد الناس في ظلام الموى لا في ضوء العقل ، إنهم يقدمون فهم لحمة الشهوة والناس يصنفون لهم طويلاً فيستمتعون هذا خلوا . نظروا من هذا كله أدب يسوء الناس ، ووجههم إن لم يسموا فبرجوه ويحرقون محافته ، ولا بد كرون اسمه إلا بالنس ، فائمة الأرض — إذن — بقاهاها أعتاف في السماء . إن الأدب في إنتاجه في الحياة الجنسية يستل هياج العاطفة ،

يشعرون بحسبها ، ويدركون آفاقها ، فينبج شعورهم ،
 ويخرجون أدباً اجتماعياً ، يحدو لهم . إن الظروف الاجتماعية
 تؤثر في الأدب وتتأثر به ، فلما وجدت القزعة الوطنية في
 السنين الأخيرة رأينا أمثال شوقي وحافظ يفتشون بالوطنية
 ويخرجون أدباً وطنياً ، وهذه الحرب لما قامت في أوروبا
 وأمريكا كان الإنتاج الأدبي فيها تفوح منه رائحة الحربية
 وتشد للثقل الأخي للسلم . فأننا نقول بما سيكون لا أرسى
 منهجاً ما سيكون ، وشأن بينهما . وأنت خير بأثر النقد
 الأدبي في توجيه الأدب ، فكما خطا الأدب خطوة سار
 وراءه النقد بحيث أنه أحياناً ويميله أحياناً ؛ وكما أقاد النقد
 الأوروبي أدباء عرفوا به عيوبهم ومزاياهم ، فأصلحوا
 من عيوبهم واستكثروا من مزاياهم ، وتوجهوا في أصيهم
 كما أن لهم المأزوم ، لما وقع التفاد صوتهم بقدر الأدب ،
 امرى في أمورا مزايا وعيوبه ، وعرضوا للإنتاج الأدبي ،
 ولما كان المأزوم في الإنتاج في العلاقات الجنسية ،
 والفرق في المأزوم الاجتماعي ، فليس لا يكون نقدك
 والفرق في المأزوم الاجتماعي ، فليس لا يكون نقدك
 المأزوم في الأدب ، وهذا لا يسلط الأدب حريته ولكن
 وجه اختياره ، كقولنا جميعاً في الجبر والاختيار .

نقبت مسألة عامة نقدي بها الأستاذ العقاد ، وواقفه
 عليها الأستاذ الحكيم ، إذ قال الأستاذ العقاد : « إن وجهة
 الأدب والأخلاق والشريعة جميعاً إنما تنبثق من الاجتماعية
 إلى الفردية » . لا من الفردية إلى الاجتماعية ؛ وقال الأستاذ
 الحكيم : « إن الوعي الفردي هو روح الفن ، والفردية هي
 عنوان التكرامة الإنسانية ، هي شعور الإنسان بقيمة
 فكره وإحساسه ، لا يفكر الجماعة وإحساسها » ، ورميان
 بذلك إلى تقدم ما قلته من : أن تطور الأمم العربية وأخذها
 في سبيل الرقي سيصبح فيها الوعي الاجتماعي ، بعد أن
 كانت لا تلت إلا وعياً فردياً ، وسيصبح ذلك أن الأدب
 العربي سيكون منه أدب اجتماعي بجانب أدبه الفردي .

لإصلاحه ، أو هيئج فيك مشاعرك الجنسية ، فليس
 بالأدب الرائق — وإن كنت لا أنكر قيمته — مهما
 كتب له من الملوذ غفوره خلود بإيلس .

لعل نقطة الخلاف الحقيقية بين الأستاذ توفيق الحكيم
 وبليبي ، هو أنه يريد أن يقدر الفن بمجالة فقط ، وأريد أن
 أقدره بمجالاته وأخلاقيته معاً ؛ فالتقطعة الأدبية في نظري مهما
 بلغت من الفحش ، ومن سوء الأثر ، ومن تشهير المجتمع ،
 تقدر بمجالاتها فقط . وأريد أن أقدرها بمجالاتها وأثرها في
 المجتمع ؛ هو يحكم على قصيدة في الوطنية وقصيدة في الحياة
 حكماً واحداً إذا استويا في الفن ، وأنا أفضل الأولى ، لأنها
 جمعت إلى الفن السمو الخلق ؛ هو لا يهتم في المرأة الجميلة
 أن تكون مقيمة أو فاجرة ، وأنا أرى أن في العفة جمالاً
 من نوع آخر يزيد جداً في قيمتها ؛ هو يقدر القطعة الفنية
 بقياسه الفني لا غير ، لا تدخل فيها للقيمة التي ترى إليها
 أو الأثر الذي ينتج عنها ، فتزكّي أو تفسد مع الناس ، يساوي
 يساوي قول المجنون العفيف ، فإن قال المأزوم الثاني كان
 منهما من فن ؛ وأنا أرى أن في القول الفاجر الفني شيئاً
 — أشعر به في موضوعه — يقتل شيئاً من قيمته ، وغزل
 المجنون العفيف قد جمع إلى جماله الفني جمال العفة يزيد شيئاً
 في قيمته ، وبذلك أدخل عالماً آخر بجانب المقياس الفني هو
 مقياس النقاء والأثر والنتيجة ؛ أنت تريد جمالاً وكفى ، وأنا
 أريد جمالاً نافعاً ، ومع هذا لا أبغض الفن قدره حيث كان .

وقلت : « لا بليبي أن نخل على الفن أنماها بعينه ،
 ولا يجوز لنا أن توصيه بارضاء لباس الحكمة الزينة
 أو دواء الإصلاح الوقور ، إلا أن يشاء هو ورضى » .
 وهذا حق — إلى حد ما — ولم أرد فيها قلت أن
 أرسى منهجاً للأدب أحمل الأدباء على السير فيه ، ولو
 أردت ما استطعت ؛ ولكني صوّرت ما أتوقع ، وقلت إن
 ظروف الحياة الاجتماعية للأمم العربية ستتمخض عن أدباء

فيه هذا المعنى من فرض الضرائب على الأغنياء للفقراء ،
والطالبة بتدخل الحكومات لتقليل الفروق بين الطبقات ،
وما إلى ذلك ، وفي كل هذا يُبدى عن الفردية إلى الاجتماعية .
وقد علمتنا التاريخ أن الأفكار المتطرفة تتقارب وتلتصق ،
فلا النظام البلشفي بمخالفه يستطيع أن يفرض نفسه على
العالم كما هو ، ولا الديمقراطية بشكلها الحاضر ستتصجر ،
ولكن سيتمخصص العالم عن نظام آخذ يلو من كلا الطرفين ،
كلاهما الحار يخالط البارد ، فيأخذ هذا بعض حرارته ، وذلك
بعض بروده ، وأياً ما كانت فالعالم سائر إلى الاجتماعية
لا الفردية ، وسينشأ عن ذلك حتماً النصيب الأدب بصيغة
النظام السائد .

وأخيراً أشكر الأستاذين على عنايتهما بهذا الموضوع
النافع ، وضرهما إلى الصالح في الجدل الهادي الذي
يُحى بالثقافة لا بالأشخاص ، ويطلب الحق لا الغلبة .
أحمد أمين

المآسي والصور الغوامض

للأستاذ محمد عبد الله منان

بضم مجموعة فريدة من المآسي الملوكية والمحاكات
التاريخية والشخصيات الغوامض على نسق كتاب
ديوان التحقير والمحاكاة الكبرى .

مطبوع « بدار الكتب » طبعاً أيقاً ومزينة
بعشرين صورة تاريخية . ثمنه ٤٠ قرشاً و ٥٠ ليرة
المتاز ، وذلك عند البريد .

ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر
وسائر المكتبات

ومجال القول في هذا الموضوع ميسج ، ولفظ الفردية
والاجتماعية يطلق على معان كثيرة ينشأ جميعها الخلاف
بين الكتاب الإفرنج والعرب على السواء ، فالفردية التي
عنيها في مقال السابق هي الأناية أو الأثرة ، والاجتماعية
هي القربة أو الإيثارة ، ولا شك أن الأستاذين من بعد هذا
التحديد في أن الرق الاجتماعي والاجتماعي سائر نحو الاجتماعية
لا الفردية ، فمن أسباب رقى الغربيين على الشرقيين وعيهم
الاجتماعي ، أو بعبارة أخرى شعورهم بوطنهم وأمتهم بحجاب
شعورهم بشخصهم ، ومن هذا الوعي نطمت الجمعيات
والنقابات ، وبذلت اللها في الحروب دفاعاً عن الوطن ،
وكثر تضحيات الأفراد لوطنهم وأمتهم ، وهذا التقدم
الطبيعي من الفردية إلى الاجتماعية واضح حتى مظهره حياة الفرد
نفسه ، فالطفل أناني مفرط في الأناية ، فإذا نما ونضج بعض
الشيء بدأ يشعر بأمره ، ثم بدأ يشعر بجمعه ، وفهم أن
له حقوقاً وواجبات ، فإذا قلت إن الأمم العربية سائرة في
رقبها إلى الوعي الاجتماعي ، وأن ذلك سيمسك في أيديها
فهذا أممي ، ولا أظن الأستاذين بمخالفين فيه ، بل إن الوعي
الاجتماعي سائر إلى اجتماعية أممي وأرق ، وهي الوعي
الاجتماعي بالأخوة الإنسانية بدل الوعي بالوطنية والقومية .
على أن الفردية قد تطلق أيضاً على نوع النظام الحكومي
الذي يتمتع فيه الفرد بحريته وملكيته وتجارته ، وما إلى
ذلك ، من غير أن تتدخل الحكومة في شأنه . إلا عند
الضرورة القصوى ، وسدد الاجتماعية أو الاشتراكية ،
وفي هذا المعنى أيضاً أعالم الأستاذين ، وأزعم أن العالم
سائر إلى الاشتراكية على نحو ما ، ومصداق ذلك أن أعظم
الأمم الفردية كإنجلترا أو أمريكا تستطيع نظمها من حين لآخر
عنا بقربها من الاشتراكية ، فتدخل في تنظيم الاقتصاد ،
وتأخذ من الفنى لتعطي الفقير ، وما مشروع بيفردج
وأمثاله ، ونحو الأحزاب الاشتراكية فيها ، إلا دليل على
ما أقول ، بل العالم العربي نفسه — وفيه مصر — بدأ يظهر

الخط العربي

مزاياه وعيوبه

صنع العرب لهذا الخط ما أزال إبهامه ، وسدّ قصه ، وكذلك قبل الفرس والترك وغيرهم من الأمم الإسلامية التي اتخذت الخط العربي لكتابة لغاتهم .

ولأرب أن من يسع دعواي إظهار الشكل على حروف الحركة يتخذ في قلبه أو على لسانه هذا السؤال : كيف يُعبر هذا الشكل الشكل على هذا السبط الواضح الذي يحدد صورة الكلمة ويحفظها الزاكي كما يراها ؟ وما الذي أدى إذن إلى التعريف الكثير الذي لعب عقولنا في التعريف منه ، وألف فيه الكتب ، وكيف تحتمل الكلمة أشكال كثيرة لا تتسع لها ؟

وإني أجد الجواب لهذا السؤال في ما يلي : إن إبهام الشكل ليس عيباً في الشيء ، بل هو شرط

عليه وجوبنا فيه على اصطلاح ، ولست أعتقد أن الخط العربي هو شرطنا فيه ، ويبنى أن تتدارك اليوم ما كنا فلا . نحن في شكل كتابتنا بين إفراط وعريط ، نجد كثيرا من الخطوط والطبوعات الدينية والأدبية مشكولة شكلا ، أما لا نحرف فيها عن شكلة ، ونجد مخطوطات أخرى ومطبوعات لا شكل فيها أو يندر فيها الشكل . فأما إبهام الشكل فيؤي إلى الغموض والتعريف واللبس ، وأما الشكل التام فيه عيب ، وفيه تعميل الكلمة من الشكل ما يردم عليها فيمط القاري ، ويحتمل ، أليس عيباً أن تضع فتحة على حرف بعده ألف مثلا ؟ أليس عيباً وضع شكلة على حرف في كلمة مثل قالوا وباعوا ، أو شكل ضمير مثل أنت وأنتما وأنتم ، أو شكل والو المطلق والحرف في وأنتما ؟

يلهي أن يترك الشكل في مثل هذه الشكالات .

ثم يبنى ألا نلبي خصائص لغتنا ، وأن نلبي الشكل

الذي تشبها عليه هذه الخصائص ، اللغة العربية لغة أوزان ، لأفعالها ولأصواتها أوزان معلومة . وقد قلنا أن إبهام الخط إذا جئنا لكل صورة من الحروف لفظاً واحداً غلبه هذا ، وإن لم يدل كل حرف على صوت في الكلمة كما يبين في رسم الكتابة الفرنسية والإنكليزية . فإذا كان في الكتابة العربية صور من الحروف لا تحتمل إلا لفظاً واحداً وجب ألا تشكل هذه الصورة ، وهذا موضوع يحتاج إلى التفصيل والسطر . ولست أعرض لتفصيله الآن ، ولكنني أعرض هذه أمثلة : ما الذي يدعو إلى شكل اسم المفعول من الثلاثي ؟ وهل يلتبس على قاري العربية التطق بمحمود ومقصود ومطلوب ونحوها ، ألها وجه آخر محتمل لا ومثل آخر مصغر ما زاد على الثلاثة مثل المثلث والاستعمال ؟ فإذا رأى القاري ألفاظاً مثل تكرم وتكرم وتكرم ، مثل استغفرهم واستغفرهم واستغفرهم ، أو من تعدد لفظها ؟ أثبت هذه أدل على الغموض من laugh and motion and night ، وأنتما ؟ فأذا لاستغنى عن اللفظ في بعض الأمور غير هذه ففعل الشكل فلا حرج . قد صحت من بعض الباحثين في هذا الموضوع ، ومصدق ما صحت تخريفي أن النتيجة أكثر حركات العربية ، وقد تناول عشر فصححات أو أكثر كما في الآية « عشر فصادي فقال أما ربكم الأعلى » ، والآية « وطرب لنا مثلاً ونسي خلقه » ، وكما نصح السيان في الكتابات بلزوم بالسؤال عن عشر نصبات بين مم والنزاعات ، ونحو هذا . فإذا استطعنا على أن لشكل كتابتنا ونوع الحروف المتبوع فتكون علامته سلبية ، كما يترك الآوريون علامة السكون ، استتبنا من شكل نصف حروفنا ، والسمت السكيات للشكالات الأخرى . فإذا حسبنا مع هذا حروف اللز وهي كثيرة في العربية ومشتقة من الشكل (وقد خلت الحروف اللاتينية من حروف اللز) ، ولم نلبي خصائص لغتنا ، فإن الأمر

جدا . نستطيع أن نكتب - مثلا - :

«أبى أن يمشك ربك» مقاما محمدا فلا تشكل إلا أربعة حروف ، ولا يحتل حرف منها وجه آخر ، وكذلك :

«ألم تشرح لك جدك» و«وشنا منك وذك» «ألمنى أفض ظهرك» و«فنا لك ذكرك» ، تشكل فيها اثني عشر حرفا .

وقد أردت ضبط الأعلام الأهميم حين نشرت الشاهنامة قوضت قاعدتين : الحرف الساكن أو المودود لا يشكل ، والتتوح أول السكامة كذلك ؛ فاستقلت من شكل كلمات مثل جشيد وأفريدون وكياؤوس الخ

ولست أريد بهذا وضع خطة معينة ، ولكن أريد التفتيل ليتبين أن الأمر لا عناء فيه إن صدقت الفية .

لعل مقربنا يقول : إن هذه مسائل لا بد منها إلا للمثرفين ، ونحن نريد كتابة مجمع العالم والمجاهل ، وإزاء من قدس

لا يفرقون اليوم إلا مطبوعات ، وهذا هو الذي نريد على الخاصة وأشباهها ، وكاتب الخطاط يكتبه للكتابة أو عربية ، ويعرف من يكتب إليه فيكتب له ما ينصح لديه ، ويشكل ما يحتاج إليه .

وأما المطبوعات وهي رسائل التهذيب والتعماد في هذا العصر ، فيشرف على طبعها عارفون لا يسر عليهم أن يلعبوا القواعد التي توضع للمطبوعات كلها .

إذا علم الخط العربي بهذه الوسائل ونحوها فن نجد أفضله تعديدا كما ، فهل هذا أسمن من رسم الحركات أثناء السكامة ؟ نعم ! لأن هذا أقرب إلى طليمة الفة ، ولأنه أقصر وأيسر على القارى وعلى السامع .

هل الخط العربي بعد هذا واضح ؟ هل حروفه على صبرها أبين في نظر القارى من الحروف اللاتينية ؟ إنهم رأوا في هذا : لأن ألفت الخط العربي فلا أدرك حروفه ، ولأن أختص أثر العصبية في نفس - قد سألت

المستشرقين وهم لا يهتمون بعصبية ، ولا بالف . قال مستشرق ألماني واسع العلم بالربية والفارسية والتركية ، وكانت أحدته في هذا الشأن في اسطنبول : ما أذكر أني مجرت عن قراءة مکتوب عربي أرسل إلى ، وأقد أحمز أنا وزملائي عن قراءة مکتوب ألماني أو قال لي هذا المستشرق مرة أخرى في مصر بحضرة مستشرق آخر رائدة : هل لخط حريا أعظم من التوضوح والجمال والاختصار ؟ إن الخط العربي يجمع هذه الزايا كلها ، بل يكاد يتفرد بها . قلت : ولكن بالنسبة أحيانا على القارى . قال اشكل وأيسر نفسك من النفس .

وأما جمال الخط العربي فأمر وراء البيان والمبدل . لقد صار هذا الخط فنا ذا أصول ورسوم ، له كتب وأقلام ، كانت من قبل أول ما صار منذ قرون كثيرة حلية وزينة وجمال في الأبنية والأوراق والقباب ، وأقرب فيه الكتاب .

ولكن من طيب تركي عظيم من أطباء ، كان في سنة ١٢٢٠ هـ في الخط العربي أكثر ملاحظة العين وإراحة لها من الخط اللاتيني . فمجت وقلت : كيف ؟ قال : لكثرة الزوايا في الحروف اللاتينية . وأنا أريد على هذا أن اختصار الخط العربي لم ينحنا إلى تصغير حروفه كأحوج الأوروبيين خطهم العاويل . وكثيرا ما يقرأ أحدنا خطا عربيا في غير إعداد نظر ، فإذا أدرك كتابا إفريقيا نصيب بصره فاستعان بالنظار أو مجز عن القراءة .

نحن لا ندعي أن خطنا كامل ليس فيه موضع لبيت واحد ؛ ولكن ندعي أنه على علاته تخطوط الأمم أو خير منها ، وأن إصلاحه يسير ، وكاله قريب ؛ وليس علينا إلا أن نصدق العزم ، ونستمد العقل .

وبعد ، فلو أننا نبش في القرن الأول الهجري لحق لنا أن نقبس خطا تخط لتختار ما نختار ؛ ولكننا شكنا في خط كسج في حضارتنا أربعة عشر قرنا أو أكثر ، وصار

كتابة العارضية بالحروف اللاتينية ، فقال : يمكن ولا يلزم ،
ثم سأله عن كتابة العربية بهذه الحروف ، فقال : أرى أن
اللغة العربية والقرآن والحديث والخط العربي بناء واحد ،
إذا دعيت جنباً منه أنهدم كله - أو يكاد - . وأشهد
قد سمعت مستشرقاً آخر يقول : إن كتبت اللغة العربية
بالحروف اللاتينية صارت كاللغة المالطية عند جبلين .

لنا تاريخنا وأديا وصنعة ، وحرى تاريخنا وأدينا ومعارفنا ، فإن اعتبرنا خطانا وأخذنا خطأ آخر فقد قطعنا حاضرنا من ماضينا ، وسدلتنا الحجب بيننا وآدابنا وعلومنا التي تملأ الخزائن في الشرق والغرب ، وعروا جدلا نجسنا عليه ، وفشا بعض في عيوبنا وعلومنا ككل وأبناء في مصاحفتنا ومساجدنا وقصورنا ، إن كان منا من يرى تاريخنا هارا ، راسينا سيرة ، ويرى الخير في أن تقطع كل ما بسطنا بهذا التاريخ ، وتستعير تاريخنا أو نعيش بغير تاريخ ، فله أن يدعو إلى لبث خطانا لما نفيذ من ثرات الأعمار والأجيال ، لقد سالت صبيحة تركيا في بروسة قبل ست سنين ، وأنا أنامل الجمال والحلال في القصة الحمراء ، فبه السلطان محمد علي ، قلت : يا غلام أقرأ هذا ؟ وأشرت إلى جملة جيدة ومثابة واضحة على جدار ، فقال : اسكن تركية يا يورم ، لا أعرف التركية القديمة . لا جاء اليوم الذي يسأل فيه أحدا إلى دار الكتب فيرى مصاحف الإسلام المجلدات ويسأل شابا عربيا مسلما أن يقرأ البسملة فيقول : استأذننا لا أعرف العربية القديمة .

إننا نقرأ اليوم مخطوطات القرن الأول الهجري ،
وإننا نرى مخطوطات القرن الرابع فبعد ، ونقرأها في غير
عصر ونشربها . وهي مرة بمسندنا وأهلنا أم الحضارات
السكبري للسيطرة على العالم اليوم ! كما فهم لغة العرب
قبل الإسلام ، ونتمثل بشعر امرئ القيس مع شعر شوقي ،
وهذه محمية أخرى لا تنزفها لأمة من أم الأرض اليوم
ولهذا نوات علينا المصالح : دعوا اللغة القديمة وما كتبوا
الكنائس العامية كيلا نلحقوا ، دعوا الخط العروقي وما كتبوا
بالخط اللاتيني كيلا نخسروا ، ومن قبل راع الناس
ما يرى من التجانس والتقارب بين الألفاظ العربية خاصة ،
والألفاظ الإسلامية عامة ، فدعونا إلى الارتداد إلى الجاهليات
الأولى لتتقطع بيننا الأواصر ، وتنفق هذا السبل .

ثم ، هذا الخط العربي ليس لنا وحدها ؛ هو تراث
عزير عند أمم كثيرة . وأثبت مرة أخرى لقد سمعته
مستشرقا يقول : إن هذه دعوة قديمة ، ولو سمعناها من
إنكليزي أو فرنسي لقلنا إن له مقاصد استعمارية ، ولكننا
سمعناها في مصر فأذا شوقي !!

وأما حديث آية هريما كبيرا مغربا عصر وأعلنها
كثيرا الأعراف فغلظها ، حدث هذا الرجل فأفاد في
الحديث ، ثم احتج ، ثم صاح فاضيا : أمصر تدعون إلى هذا ؟
والله لو كنت أعلم أني سأكون قتال ، والله لأقاتلنكم
أجمعين ، والله لو علمت بذلك .

غير الوثائق هذا

جاءه عليه اعتناز الحوت

ليس حنة الخالصة والفرجة والفرجة

الشمس المشرقة

111

برق و شمع

الحمد لله الواحد القهار

20 ان معر و کوردن

٥٧٧ / ٥ : غنية ومعنى الإبر

« في الممالك الناجية ضمن اتحاد العرب »

٧٥. في المالك الخارجة عن اتحاد العرب

١٥٥٥

السجون في مصر في العصور الوسطى

— ٣ —

أخصيتُ السجون وأنواعها في مصر في العصور الوسطى يقال سبق في جزئين تحت هذا العنوان^(١) ، وأبحاث الكشافة في الطرف الأخرى من الموضوع ، وهو الداعية الإنسانية ، أو بمسألة أخرى علم السجون وأحوال سكانها من مساجين ومظالم ، رعية في فهم شيء من القوانين الجنائية وروحها بصد الفرد والجماعة في تلك العصور . والواقع أن معرفة أنواع السجون وأسمائها ، وأعدادها ومواضعها ، قد تنفع التاريخ البحث ، والتاريخ القانون أيضاً — إن كان على الصنف الثاني من الدراسة محال فمؤتمنة حتى الآن — ، وأما ما يتعلق بالتاريخ لا يخص من هذا الموضوع فأحوال السجون ومساجين أسهم ، وهو ما بقى من هذا المقال .

ولست أريد — ولا أنا مستطيع — التعميد لتلك الناحية بتصدر فني في أحكام السجن ، إذ الكتب لا يكلف نفسه ولا الموضوع إلا وسدوما ، والموضوع محدود بعنوانه ، وبالعنوان في ذاته من الحدود الزمانية والكانية ما لا يحتمل به محلا للإعجاب عن الفقه والتشريع النظري .

على أني بحاجة إلى تذكير القارى بوجود نوعين من السجن في مصر في تلك العصور الوسطى ، وهما : الحبس وهن التعيين الإلزامي والحاكمة : والسجن الصحيح (proposer) لتعذيب الحكم الصادر بمقتضى الحكوم عليه .

أما الحبس ، وهو سجن القاضي ، أو الترسيم ، أو (١) انظر هذا المجلد رقم ٢٦٠ بتاريخ ٢١ — ١٢ — ١٩٢٢ ، ورقم ٢٦٦ بتاريخ ١ — ١ — ١٩٢٣ .

سجن الحكمي في بعض التراجع ، فقد جرت العادة الأنظمة في عصر البلاط الملكي — وهو الحد الزمني لهذه السلوك — أن يكون موضعاً تجمع به المحاييس من غير اعتبار لأصنافهم أو أعدادهم ، ومن غير حساب لضرورات الحياة اليومية أيضاً ؟ وربما لبث به الواحد منهم السنة أو أكثر قبل تقديمه للحاكم ، ولو كان حسبه من أجل دين متأخر أو ضمان ؟ أي أن المهم كان في نظر القانون والعرف مجرماً حتى تظهر برأته ، وتعمل ممانته بأشكال التعيين والتعويض وإنكار حق المحاكمة في ميدان مقبول (habeas corpus) . وكل هذا من العصور الوسطى وسندنا لا يستغنى ، والبحث القرن لا يزال فيها أو يطلب فيها ما ليس من طبيعتها .

وأما كان ذلك شأن الساحة القضائية والمجتمع بصدده المحاييس في جوسهم ، ولا يحكم القانون في أمرهم بشيء ، ولا على السكك ولا خشية إذا هو قيل ما بالراجع في المحاكمين وسجونهم على أنها حقائق مسلطة ، لا تزيد فيها ولا تنقصها^(٢) هو قرأ في تلك الحقائق ما ليس بها لعلنا ومسا من صفوف الشدة القاذرة والانتقام باسم العدالة وحرمة القانون . وآية ذلك أولاً أو صاف السجون المظلمة ، مما يصور أحوالها الداخلية أوضح لصور ، فكلمها شقيق النظر والخبر ، وكلمها موحش قدر ضيق ، يتم المار بقرية رائعة كريمة ، ويسمع صراخ المساجين وشكواهم الجوارح والبرى والقمل وشدة الظلام وكثرة الطواويط ، أي أن الداخلية مقفولة والخارج منها مولود ، إن صالح استهال هذا التعذيب : وكل هذه الأوصاف منقولة من مرجع معاصر معروف بسلامة القول ، وهو القرزي .

وبالرجوع نسه أن المساجين كانوا يستخدمون في الحق والتمار السلطانية ، ومحار الأمراء أيضاً ، وليس في ذلك ما يستمرى انبهاها . غير أنهم لم يكونوا يُعْطَمُون في سجونهم البتة ، باعتبارهم من مسؤولي الوسيلة لتكسب

لنقرر على كل حال ، ولو لم يُعْمَق الدخس عليه بالحس ساعة من نهار .

لذلك كله كان مقرّر السجن ضمن عديد المكوس التي أبطلها السلطان محمد بن قلاوون ٧١٥هـ (١٣١٥ م) ، إذ ابتنى سياسة الإقتصاد تخفيف أحوال المكوس عن كراهل الناس ، ومنهم سكان المحوّن والتكفلون بهم من أهلهم ، كما ابتنى إسماعيل الطبقة الإقطاعية من الأسماء وأدّاهم من التضييق والضمان ، ومنهم ضيق المحوّن . غير أن ذلك الإصلاح أتى بالويل على العائيس والسائيس ، إذ جعلهم تربية على الخشع وعرّضهم لأسوأ أنواع الماملة والإهمال والبلوغ على أيدي السجّارين وأعرّضهم داخل المحوّن وفي الطريق العام ، مما تقدمت الإشارة إلى بقية هنا .

لم يكن ممكناً إذاً أن يعمل السجّارين على الهرب من محوّنهم ، وأن يخرسوا القرص لذلك ولو أدى الأمر إلى كراهة من السجّين . إنما السجّ أن ليس بالمرجع السجّين فلا بدّ من عساً ما يسهل هذا الاستعاج المقول ، ما قد حدث فروع ، وهو ما قام به عدد من أرباب الجرائم سنة ٧٣٨هـ (١٣٣٧ م) ، إذ اتفقوا ذات يوم على قتل السجّان قتلوه ، ثم خرجوا بعد الغرب من باب ذويلة شاهرين السكاكين حتى لا يقف أحد في طريقهم إلى الفرار ، فركب الولى في طابعم ، ولم يخاف منهم سوى رجل أقطع ، فشكّه . على أن قلة الأمثال لذلك الحادث لا ترجع إلى إغفال المؤرّخين لذكر ما عاينوا أو غير عاينوا ، أو إلى رياء المسجّين ، أو أنهم لم يقدروا ، بما قد يبدو إلى ذهن الباحث ، بل هي ترجع - على الأرجح - إلى سبب أقرب وأسهل قبولاً ، وهو أن المسجّين كانوا يكتبون في السلاسل والأغلال داخل السجن وخارجه ، مما لم يدع لهم سبيلاً إلى الفرار والخلّاص إلا بوسيلة خارجية ، وهذه لم تيسر إلا أوقات الثورة والفتنة الداخلية ، كما حدث سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) ، حيناً اجتمع الإيالك الأشرقية ، ومضوا

العيس ، أو في مقابل استخدامهم سخرة في الأشغال الشاقة ، بل كانت العادة أن يخرج بهم أعمال السجن في أغلال الحديد إلى عملهم اليومي ، فيسألون الناس في الطريق ، فإذا وصل إلى أيديهم شيء من السخرة استولوا الأموال على مظلمة ، باسم توزيعه فيما بعد ، ولا ينال المسجونون منه - فيما يبدو - إلا ما يقدفون به إلى بطونهم في مرفة أو حمية وقت وصوله إلى أيديهم ، وويل لمن اجترأ منهم على الاحتجاج لدى السجن عند ما يردون إلى سجونهم آخر النهار .

إنما يظهر من طريق الاستنتاج أن طرح إسماعيل على سدقات السابلة من مختلف الطبقات ، بدلا من إطلاعهم على حساب الدولة أو السلطة الهيمنة على شؤون المسجون داخل الدولة ، لم يقصد به الإيمان في القوة والأدلال ، بل إصلاح على قدر ما فهمت تلك العصور من الإصلاح والتدليل على ذلك أن السجّين حتى سنة ٧١٥هـ (١٣١٥م) من عهد السلطان محمد بن قلاوون ، لم يندم على وصوله السجن مكسباً معروفاً في التاريخ الملوّك باسم مدار المسجون ، بل عليه سنة دراهم يأخذها السجّان لنفسه ، وذلك سيرة كذّبة أخرى ، يقتضيها قيامه بالصراف على طعام السجّين - فيما يفهم - ، وهي في معظمها تدخل إلى جيبه الخاص ، ولذا كانت وظيفة السجّان من أرباب الوظائف الصغرى في الدولة المملوكية ، يتهاون عليها المقاطعون ، وطلبها القهّان أشدّ الطلب ، ويترددون في مبالغ ضبابية ، والكثرة ما يتحصل منها ، وقتاً ما يصرّف من ذلك التحصيل على السجّين أنفسهم ، سيما وأن انعكاس القرار لم يؤخذ من السجّين الذي قضت السلطات بسجنه ، بل يؤخذ أيضاً من السجّين التي قضت السلطات بإعدامه ، ولو لم يقر بالسجن إلا لحظة ، وكذلك كان الحال بسجن القضاء ، حتى إنه لو تخافم اثنين لدى مجلس الحكم ، وانقضى الأمر حبس للدخس عليه وعن التحقيق ، ثم انقضت المحسومة بين الطرفين دون تدخل القاضي ، وجب دفع

الهلالية

وهذه قصة شبيهة أخرى تختلف اختلافا كبيرا عن القصتين السابقتين اللتين عالجتاهما في الثقافة من قبل ، أعنى سيف بن ذي يزن ، وعقتر بن شداد^(١) . فسيروا بين هائل كابدل عليها اسمها ليست سيرة فرد بل جماعة ، وحوادثها الرئيسية وقعت في غربي العالم الإسلامي لا في شرقيه ، وفي صقع هو وطن لمزيج من أجناس ، لا في بلاد عرفت بوحدة العنصر وبسدها عن الدخيل ، في شمال إفريقيا ، حيث المنصر القينيق الساسي والبربري الإمبربي ، ذلك الشعب صاحب التاريخ القديم ، والآثر البعيد في حضارة البحر الأبيض المتوسط ، والذي كانت تربطه روميا إلى جانب الروابط السياسية الثقافة اللاتينية ؛ لذلك لا غرابة إذا رأيتاه يتطلب من العرب المحدثين معاملة

(١) رقم ٢٦٦ ، ٢٦٧

خاصة ، تختلف عن سائر المعاملات التي عرفتها البلاد الأخرى التي خضعت للإسلام والمسلمين . فثارتنا يحدنا أن أمور تلك البلاد اضطرت اضطرا خطيرا عقب وفاة قائدها وقهرها عقبة بن نافع ، ونحن نعلم أيضا أن قبائل بربرية كثيرة ارتدت عن الإسلام بعد أن اعتنقته ، حتى أن الوليد بن عبد الملك اضطر إلى إعادة فتحها بإستناه أموراه إلى موسى بن نصير . وبالرغم من هذه الحسدبية التي حكم بها البلاد فتحن بعد العروبة والإسلام في كفاح دائم ، يختلف حدة وضعها باختلاف العصور ، مع البربرية والوثنية . ولعل أجل صورة من صور هذا النزاع هي تلك التي تقدمها لنا سيرة بني حلال في أسلوها القصص الشعبي ، لا التاريخي العلمي الذي تركته لأمثال ابن الأثير وابن خلدون . فسيروا بين حلال وإن لم تكن في حجم سيرة « ذات الحمة والبطال » ، التي تقع فيها يقرب من اثنين وعشرين ألفا من المصفحات ، إلا أنها تعتبر من كبريات

وهم سجن الحب ، وإطالة السجن بحزاة البنود ، ثم إغلاق السلطان المؤيد لسجن خزانة شبال في السنة الثالثة من حكمه ، لسابق تجربته بذلك السجن ، ونذره هدمه إذا صارت له السلطنة ، وبنائه جامع المؤيد الشهير في موضعه وفاء لذلك النذر — كل ذلك يشهد بأهم السلطات الحاكمة بأمر السجن^(٢) ، أما موقف المجتمع فيدل عليه قبول الناس لما فُرض عليهم من إعطاء المساجين أنواع الصدقات في الطريق . على أن الموضوع سطره آخر ، وهو شرح ما يلقاه السجن من أنواع المعاملة ، من وقت دخوله متهمها تحت التحقيق إلى وقت تنفيذ العقوبة المحكوم بها عليه كجرم واقع تحت راحة القانون ، وهي إقسية للمستقبل القريب .

محمد مصطفى زيادة

(٢) انظر هذه المجلد رقم ٢٦٦ تاريخ ٢١-١٢-٤٣

ورقم ٢٦٦ تاريخ ٤-١-٤٤ .

إلى سجن خزانة البنود ، وأخرجوا من سجن خزانة البنود إلى سجن الخزانة ، يربطون السجائن ، والأنهم لفتوا أستاذهم السلطان الأشرف خليل . وشيخ بذلك الحوادث ما وقع بالإسكندرية سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٦م) ، إذ كان هناك المدينة فتنة بسبب ناصر فرنجي ، فعمد الجمهور إلى السجن ليخرجوا من مكانة بين المتفلين السياسيين . لولا أن أسرعت السلطات إلى نقلهم إلى أبراج القلعة بالقاهرة ، هذه خلاصة واقية لأحوال السجن المختلفة وأهلها في مصر في عصر سلاطين المائيك ، وليس ينقص الموضوع إلا إشارة واجبة لموقف السلطات الحاكمة والمجتمع من تلك الأحوال التي أجمع الكتاب على شنعائها . والحقيقة أن السلطات الحاكمة لم تكن كفاية عن أحوال السجن وسكانها في تلك العصور ، وفي أجبار هدم السلطان قلاون لسجن المعونة وفاء لنذر قدم ، وبنائه سجن الحب بقاعة الجبل ليحل محل المعونة ، ثم قيام السلطان محمد بن قلاون

وحفظا والتمان ! ومن ذرية رباح دياب ، فن جدول
السب هذا يتبين لنا أن أبا زيد من نسل جابر ، بنو دياب
من ذرية جبير .

وبعد قصة جابر وجبير ، نقرأ خبر زواج (روزق)
بخضراء ، وكيف أنه روزق منها بنتا تدعى (شبيحة) وفقى
بدهي (ركات) ؛ وكان الولد أسود اللون ، لذلك اتهمت
خضراء في عيرتها ، واتضح الأمر إلى وحيلها وانتهى إلى
بلاد الأمير الزحلان عدو بني هلال ؛ فيكرم الأمير
وقادتها ، ويعينها ونزعة ابنها ، وبوكل أمر تسليمه إلى
خطيب كان يشرف على ابنه « متم ونتم » ؛ ثم يحدث
شيء من سوء التفاهم بين الخطيب وركات ، فيمتنع
الخطيب بقصيدة فيها شيء من الطرافة ؛ لأنها تذكر ابنها
الذي كان يدرسها الخطيب في ذلك العصر ، فهو يعني
باللغات وخاصة السامية منها :

ونسب من الزلاليين يفتنك ولسان سراي تصير مشير
الزلات والسيارات والكيمياء

والخطيب يفتنه بذلك ، وعلم الحسان وكل من جاور
وأعلمهم الصباغات كلها تصنع لروحك ما تريد بأمر
ويحدث أن يهاجم الهلايين بلاد الزحلان فيتمسده
لهم ركات ، ويأخذ منهم أسيرة ، ويصرف له الهلايين
مشجعاته ، ويطلقون عليه (سلافة) وينسب به إلى زلات
فدروجه بأنه (فلسن البار) ؛ ويخرج ركات (سلافة) في أمم
الهلايين الذين رأوا كيف أن مهابته آخذة في الزيادة ،
فذلك أطلقوا عليه منذ تلك الوقت اسم (أبي زيد الهلالي
سلافة) . وبعد أن يخرج السيرة من سرد حروب الهلاليين
مع الزحلان تنتقل إلى سرحان ، وتحدثنا عن خبر تفرقه
بشبا وقصصها في أسر الإفرنج وبجانبها بخيلة لطيفة ؛ ثم
تسجل لنا بعض الأنواع الشعبية التي نرى ما يشبهها وروا
وقافية في أغاني الصنيدبة الحديثة التي يسهل حفظها ، ونجد
توحيدها . وهذا النوع من الفن الشمرى إن ذكرنا بشي

القصص العربية الشعبية ؛ وكأن مكتبة القولة بمران
تغير بامتلاكها لمخطوطة ذات أهمية ، فهي ليست أقل
نبا بنسخة السيرة الهلالية التي عثافت النسخ المتداولة
بيننا اليوم .

ونستطيع أن نقسم هذه القصة إلى ثلاث حلقات :
الحلقة الأولى ، وهي التي تعالج بني هلال منذ ظهورهم في
الجزيرة حتى استيطانهم بلاد السرو ؛ والحلقة الثانية ،
تحدثنا عنهم وقد رحلوا إلى نجد ؛ بينا الثالثة ويطلق عليها
نثرية بني هلال اهتمت بحروبهم وأعمالهم في القرب .
أما الحلقة الأولى فتبدأ بحدث عن بني هلال واسمهم
وذريتهم ، فهي تقول إن هلال بن عامر وقد علي النبي صلى
الله عليه وسلم ومعه قومه ، وأسرى إلى المسلمين معادة فومه
حتى أن النبي أسكنه وادي الباس . وقد أشهر هلال عندنا
بالشجاعة والكرم ، وروزق بولد داه البشر ، ولم يكن البشر
هذا يبلغ مبلغ الرجال حتى ترك والده وأهله في الجزيرة
وقام بكثير من أعمال السلب والنهب ، ثم ظهر على الأعداء
(مهدب) وتزوج ابنته (هذبا) ، ومضت على زواجهما حياة
أحرام ولم يرق منها بطفل ، فقرر الزواج بأخرى ، ودخل
إلى بلاد (السرو ومعاة) حيث تزوج بأمة الملك السالمج
واسمها (عذبا) . وبعد ذلك ترى السيرة تحدثنا أن (هذبا)
ومضت له (جابر) ، و (عذبا) (جبرا) ؛ ولم يمتض على ولادة
الطفلين زمن طويل حتى رى القوة تدب بين الاثنين ،
ورى كلا منهما تريد القدر لها ولابنها ، وهنا نعرض لنا
السيرة هذه الناحية من نواحي الحياة الشرقية الاجتماعية
عرضا جريلا ، وينتهي الأمر بطلاق (عذبا) ورحيلها مع
ابنها (جبير) إلى نجد . ومن نسل جابر وجبير اتحدت إليها
رجالات بني هلال ونسأهم الذين قاموا بالأدوار الهامة في
مختلف فصول السيرة . فجاء ولده عامر وتامر وهشام
وحازم ؛ ومن نسل هؤلاء اتحد (روزق) والله أبي زيد ،
وسرحان والده السلطان حسن . أما جبير فقد ولد له رباح

فإنه من الإلحاح السامى القديم ، والذى وصلتنا نحاح منه
في الأدب البابلي الآشورى . فجميع (شما) نصف نفسها :
وإلى أعمالك عسى والكف متحلى
وخشوف وردنى فى موج ومويه
أظفر أشانها هدى علالها
أظفر لاقمها شبه الردييه
والشعر مثل الليل كأنه صياصب خيل
والوجه مثل الليل وعيون عسديه
واصح إلى سرحان بعانها :

شما تلفتني بحبك ضللتني
قوى واسفني من فوق شربه
فوى أقى دورك وهلكك من دورك
بالليل أما ازورك وها لوقت شوبه

وقبل أن تنتهى الحلقة الأولى من السيرة شراً شديداً
كثيراً من أعمال الملاحين في البحر والحدود
أما الحلقة الثانية فتبدأ برسالة الملك حسن إلى
زيد من بلاد السرو إلى محمد ، حيث تروى القصة الأولى
خير ، أي الأمير غام وأخته دباب ، وصف هذه الرحلة العجيلة
الذى حل ببلاد السرو . وفي طريقهم إلى محمد لقوا فصلاً
طويلاً من حروبهم مع يهود خيبر وانتصارهم عليهم ؛ وفي
محمد يزوج السلطان حسن (أخته) أخت دباب حداث
بعد بآخته (نور يارق) أخت الجازية . وفي هذه الفترة محمد
وصفاً للمشارك التى قامت بين الخلافة والمقبلي حنظل
والهيدى ، ثم تنتهى إلى الاستطام بين أبي زيد ودباب
ولا تنتهى هذه الحلقة إلا بعد أن نطيل في الحديث عن
بعلولة العرب عامة ، والخلافة خاصة ، وانتصارهم على الإفرنج .
وتتبرية بنى هلال أو الحلقة الثالثة من حلقات هذه
السيرة تسمى بأعمال الملاحين في القرب خاصة ، في شمال
إفريقية ، وهذه الفترة من فترات التاريخ الإسلامى صحبة
لاشك فيها ، كما أن بنى هلال عرفتهم الحفافية وعاشوا في

الإسلام ، وقاموا وحلفائهم بتسبب وأقر في سبيل العمل على
تريب تلك البلاد جيداً وثقافة . فابن الأثير يحدثنا في
كامله بأن رسول الله (ص) تزوج في العام الرابع من زيفه
بنت خزاعة أم السباكين وهي من بنى هلال ، ثم يذكرهم مرة
عند الحديث عن غزوة حوازن ، ومرات كثيرة أخرى في
مناسبات مختلفة . أما غروجهم إلى إفريقية فقد ذكره
أكثر من واحد من المؤرخين ، وأذكر منهم هنا ابن خلدون
فقد جاء في ص ٦٢ - ٦٣ من الجزء الرابع من تاريخه
ملخصه : (كان المزم بن باديس قد انتفض دعوة المبيدين
بإفريقية ، وخطب للقائم الباسي ، وقطع الخليفة المستنصر
العملى سنة أربعين وأربع مائة ، فكشف إليه المستنصر بتسببه
ثم إنه استوزر الحسين بن على التازورى بعد المجرى وجرى ولم
يكن له رتبة ، فقام به المزم دون ما كان يحاطب من قبله ،
فحدث ذلك وأخرى به المستنصر ، وأصلح بين زغبة ورياح
من بنى هلال ، ومنهم إلى إفريقية وملسكهم كل ما
احتجوا به ، وبعث إلى المزم : أما بعد فقد أرسلنا إليك خبراً ،
فأجابك علينا ، وألا أقولاً ، ولعسى الله أمراً كان مفعولاً . . .)
وبما وجد التاريخ جدياً في تصور هذه الحلقة ، إذ بالسيرة
نمرضا غرضاً وإثباتاً مستفيضاً ، ففى تجربة أنها أحدثت
كأسهم ما تعد هذه اليوم ، فحين يقرأ خبر إرحال المبيدين
إلى البلاد أولاً لاستطلاع أخبارها ، ومعرفة قوتهم وأحسب
الطرق الموصلة إليها ، وكان هؤلاء الجوالس من خبرة أبناء
الملاحين من مرمى ومحبى وروى وأبى زيد ، وبلغ جميعهم
في قبضة العدو ولا يفرج إلا عن أبى زيد الذى عاد وجهز
الجيش لفتح تونس ، ولما أورد مع بنى هلال ، وحسن
مع بنى دريد ، ودباب مع بنى زغبة . . . ويؤى إلى الجازية من
مكة السكون في الطارئة ، ثم تقرأ قصداً كثيرة حول هذه
الجيش والتشبه بالهيا على عامر ، والقتل الضعيف ، والظروف
وشيب التبعي ، والبروديل بن راشد ، وأشهرها هي قصة
بنى هلال مع الناضى ما كم معيد مضر . وما كانت تتحرك هذه

عروض العرب السبعة ، وشرعوا في تقسيمها بينهم ، كما أخذوا في الاستعداد لغزو مراكش . وهنا نجد النزاع الذي كان قائما بين العرب في الجزيرة ، أمضى بين الحبشية والقيسية ، بتعجير مرة أخرى في إفريقية ، فيمثل أبو زيد القيسية ، ودياب الحبشية . وقد مهتت السيرة فذلك أحسن تمهيد ، فعلى في جدول الأنساب الذي ساقته من قبيل جعلت دياباً يتحدر من فرع نخري في عروقهم ، دماء حوير ، فهو دياب بن غانم بن دباح (ابن حوير بن دباح بن حوير ، قد ذكر (حوير) هنا لم يأت ميثاقاً ، وإنما تمهد لاسار الخصومات التي قامت بين أبي زيد من ناحية ، ودياب من ناحية أخرى ، وهو يعقل لنا قتل دياب للسلطان حسن وأبي زيد فيما بعد .

أدت هذه القبائل القيسية الحبشية وديابها في شمال إفريقيا وجماعة عربية حسنة وثقافة وديناً حتى يومنا هذا . وبعد ذلك قرأ خبر انتقال دياب إلى السودان والحفشة ، ويقتل دياب ، ويتولى ابنه نصر الدين الرافعي حكم بلاد العرب ، ويقتل بعض القبائل القيسية إلى صعيد مصر ثانية ، فأعلى العرب ، فأعلى علومهم ، فدارفور حيث نسمع عن وجود قبائل عربية مثل الزنقات نسبة إلى رزق والده أبي زيد ، وقبيلة سلم نسبة إلى أبي سلم . وهنا نؤيد السيرة أمثال المؤرخين ورجال الملفات السامية ، فهم مجمعون على أن لهجة صعيد مصر وعرب أولاد على ، غرب الإسكندرية ، ومالطة وشمال إفريقيا وأعلى النوبة ، وكذلك جنوب الماروم ودارفور لهجة واحدة ، لها مميزاتها الخاصة التي تميزها عن سائر اللهجات العربية .

لكن قبل أن أتم مقال اليوم أحب أن أقول إن استقرار هذه القبائل العربية خارج الجزيرة لم ينشأ يوماً جمادياً وأجلاً نجد ، وحرية نجد ؟ وقد عبر مرعى عن هذا الحب بقوله يخاطب صعدة بنت خديجة :

يا صعدة نجد العربية مرية وبنت بها أهل وكل جدود
بلدي ولو جارت عليا مرية وأهلي ولو شعت عليا نجد
فزار صنين

الجيش لللاقة الزباني خالته حتى زودها أبو زيد بخلطه الطرية الخطيرة ، فهو يضل جواسيس العدو مرة ، ويستولى على عيون المياه مرة أخرى ، ويأتى بحيل لا تقل مرافقة عن حيل فواد الحرب الحامية . وقد أطلق مرة للنادى ينادى في العرب : (كل من كان عنده ناقة والله يبعد ابنها عنها ، أو فرس والله يبعد ابنها عنها ، وكل من كان عنده حصان ملوق يحميه عند فرس شابع ويحقونا على عين الطعيرى ، ونحلى العرب كلهم يدقوا عليهم في رؤسهم على العين ، فيسمع الزباني حين الهارى وصهيل الطيل وحسن الطويل فينكسر قلبه قبل ما يحى لنا الحرب) . كما أنه كثيراً ما استخدم النساء للقتل في داخل البلاد ، والقيام بأعمال السلب والنهب لإيقاع الضرر بين الأهلين ، والتمهيد لمحاول الجيوش ؟ وكان تمهيد هذه المهمة يوكل عادة للجارية التي كانت تقوم بها خير قيام ، فاحمها مثلاً تتخيل على منصور أحمد بن تونس :
يا واثب منصور اقمي لي المور ونبيح
نسر له جديتور
والله ما أفتح الباب لو شفت العذاب
ولا اضرب بحراب من غزى سكرى
افتح لا تبال والإحسا لا صالى
ونبيح الخصال وأخرمة الهامى
والله يا طريفه غابض من خليفه
له حربه رهيفه تفرق من الحجاره

وبعد حديث طويل نجد المازية تتقلب على منصور ويضع لها ولبن معها من نساء ورجال ، ويتكلم الخليلون من إطلاق مرآح مرعى وبنفس . ثم تدور الدائرة على الزباني فيقتل بعض خطة وضعتها ابنته صعدة التي شفت مرعى عند ما كان في سجن أبيها ، فهي التي أشارت على المازلية بإرسال دياب إلى أبيها ومنازحته ، لأن دياب أقدر القرمان للمنازلة خليفه . خلا الجول العرب في تونس واستولوا على

حمار عراف

[ولد يوسيفوس كزير Keroer كاتب هذه القصة في أواخر القرن الثامن عشر . فدا كان في الثامنة عشرة كان مقدراً له أن يعمل في صناعة النوش ، فاختار صديق شاعر ، بث به إلى توبنجن حيث درس الطب ليعار طبيباً ، ومات في الخامسة والسبعين طلياً ، وعاش بين ذلك عيشة متضاربة لسكنها متأسكاً . فدا كان في حياته العامة أغلب ما يكون مرحاً ، جسوراً ، وراضياً عن الحياة ، خذاً وصاحباً ، بينه متندى ، فدا أن لم يقصده كاتب أجني أو شخص ذو شأن ، وداره يجتمع القوي الثوابع القوية . يظل لهم المون في ذهن ومادة . لكنه مع ذلك كان يحسوه شوق شوق إلى التمار البالية ، وشغل منح سالم الأرواح . وقد تولى من هذا التناقض في السكائن غرائب في الشعر ، فظل حبيب أغانيه الشابة حساسة تغتاب النسيان ناعماً ، وتجلس من عالم الحقائق محبب القراء ، عالم أحياء ، وواع بالهول والموت ، وخير ما كتب : « خلال الليل أوكس » ، وهو شعر علم بالأفاني ، غير بالقراءة البديعة الفذة . وفي قصة البروم مثال من فسكاته] .

لم أفضل في ذلك الساء ، غير أن أخرجتم من موضع ما تياس إلى ما يسمي بحبل وأرتجح ، وبعد نصف ساعة . وكان جل ما ينيشه ما تياس من هذه الغزوة أن يعرف الصياد الشهير ناست ، الذي يسكن الحانة النافعة فوق هذا الجبل ويدبرها . وكان ناست أبل بركه ويستخذه في فتون أخرى ، وأرتجح بقرع الطبل ، وحمار عراف .

نخرجنا من الباب المسمى باب سيلور ، فلقينا قرويا ومعه حصان ضخم مشدود إلى محلة نقل يتجه اتجاهنا . فلم يكده القروي بلوح ما تياس حتى ناداه بأعلى صوته : ما تياس إين عمى ! إنه لمن حسن الصدق أن نلتقي هنا .

فعرف ما تياس فيه قريبا من أقاربه الدانين ، وقرويا من أهالي أورتين ، وسر لهذا اللقاء . لكنه لما أخذ يتحدث إليه عن نييشه من الذهاب إلى وارنبرج وأنه يشد معرفة الصياد ناست وحيوانه ، أطلقت جبين ابن الم سحابة ،

وعلته تقطعية شديدة ، وانفجر ساخطا بسبب الصياد المسكين . قال : هذا الحصان الجيد ، وإليه قليل من المال قد عدت به من ناست ، وكانت ثمرة معرفته ، ما في ذلك شك . لكنه إن أنس فلن أنسى تلك الضربات التي أزلها على ظهري ذلك الجحود بصل حياطة الأيائل ، ولا الشنأم التي كالها لي . فإذا بلغناه فقولا له ، وقولا للناس أجمعين : إن الحيوان الذي حمله إلى فرانكفورت على أنه فرس بحر أمريكي (سيد قشقة أمريكي) لم يكن سوى حصان قل أمرده طامع في السن .

فكاد ما تياس يستلقي من الضحك على قضاء ، وقال لابن عمه : ألا إن هذا الشيء عجب ، فإن أفت عليه الدليل فإني والله لنأفقه على الناس جميعاً ، وأخذ به ثار ما أصاب ظهرك من ضربات .

قال القروي : وكيف لا أستطيع البرهنة عليه . سل جيلبرت شيفنهورست في ناحية أورتين ! لقد كان الحصان

مع المرض كل شعر الحصان قائمجد وامسكس كالحذاء اللامع ، حتى أعصاب العينين زلت ، وبات ذيله كشمبان البحر . وبينما أنا سائر به في مثل هذا الألوان في ربيع العام الفائت يمر مركبي في هذه الطريق إذا بي ألقى الصياد ناست ويراه . فجعل يقول لي في مبلغ ما أرتجه إن أنا قصدت به إلى سوق فرانكفورت تحت رعايته ، وأراه الناس لقاء جعل معلوم ، على أن أكتب خبره فلا أقول أو يقول إلا أن الحصان من فصيلة نادرة من بلد أجني ، وهو السكفيل بما يبق . ثم جعل يطاردني ويلحقني حتى نزل أدل ، فجلسنا إلى مائدة هناك وجعل يسقيني ، وكان يجالسنا طالب من هيلبرون يحمل ناست كثيرا من الود ، فاشتراك في الحديث ، وجهد في إقناعي بالذهب مع ناست والحصان إلى فرانكفورت ، وعمرضه في سوقها بوصفه فرس بحر

تستر نصفه . وكان الرجل يمرورا كما علمت فيها بعد ، وكان مجهول الأصل والصب . وكل ما يعلمه الناس من أقواله المبهمة ، أنه كان يشغل منصبا رفيعا في السابرج في سالف الأيام ؛ وأن الزمان خاناه في صداقة الخلان وحب الحسان ؛ وأنه خرج هائجا على وجهه في الثابت ، فإذا حل الشتاء هبط ليلا إلى القرى واسطلى .

وهو هنا وهما يفتش بيت راعي الكتيبة ، ولا يأخذ من أحد مالا ، ولا يمد يده إلا لتناول ما يسد الرمق . وهو يتحدث إلى رجال الدين باللاتينية واليونانية ، ويعزف على البيان تقاسيم آية في الإبداع . في مشيته طرف ومهابة ، وفي الهيئة التي تحملها شكلة المودة على رأسه وجسده مثل هذا الطرف والجلال . وكثيرا ما يرى حول هامته أنابيب الأزهار . وقد سمع إحدى صبيته غلمان إحدى القرى من غليل الأدب والحياة ، فسكان يسترها بمصانبة عذوبة حول رأسه كالجمجمة .

كان يلبس الزياة أحمر غور في جوف الليل ، فلا يشبهه غيره . فإذا خرج لم تعرض له الشرطة ، لأنه لم يكن قد حل الرمح الذي تمتثل فيه الشرطة مثل هؤلاء الأعاط .

وكان فوق هذا الجبل مكان للانتظار عبارة عن برج عال فوقه قبة من الصاج مثل الزر العظيم ، يصد إليه بدرج ، ويدخل إليه بمنفذ ، وليس في البرج مأوى ولا سكان . لكن الممرور أخذ من قبة الشبهة بالزر العظيم مأوى له . وقد كان يأوي إليه حين استرعت موسيقى الجبل انتباهه ، فدخل البهو في سمته الذي ألفه الناس منه ، فكسك الرافسون عن الرقص ؛ أما هو فاقرب من فتاة لطيفة ترتدي ثوبا أزرق ، ويقال إنه لما حاذها تم بقول : بلى ، بلى ! لقد كانت ترتدي مثل هذا الثوب ! ثم قدم لفتاة ذراعه يدعوها إلى الرقص فلم تمنع ، فدار معها دورات

أمريكي ، فسوف يقبل الناس على مشاهدته ، فإن تق هناك لم يعدم من النساء من يحشوه ويضمه إلى مجموعة الحيوان النادر التي يحتفظون بها في متحف الحيوان . واستطرد القروي يقول : فرضيت . وكنا بعد يومين في فرانكفورت وبني الحسان ، ومع ناست أنواع حيوانه . وامتنى ناست أيته ودار به في الحلقة بتأدي أنه جلب إلى أرتيه العليل ورجلته العراف حيوانا نادرا لم تشهده أوروبا قبل الآن ، ألا وهو قوس بحر أمريكي على قيد الحياة ، وأقبل الناس على رؤيته إقبالا شديدا ، ووعدت ناست بثلاث الفحل . لكننا اختلفنا بعد ثلاثة أيام ؛ فقد بدا ناست يتبرم بي ، لكنه لا يتبرم بالحسان . وإذا ألكيز حماره الذي كان رفسني ، جرد حيلة الأثافي في حمدها وألبسها ظهرى علفة ساخنة . واقتربا ! وبعت الحسان سيديا غعزما محبوب الأقطار بأسوده وفيتليته لقاء مبلغ طيب من المال ، غير كاتم عنه حقيقته وإن كنت تهتبه في كتابي هذه الحقيقة عن غيره عاما كاملا على الأقل . وما قد اقصي العام ، وتحدثت من وعدى نكابة ناست . سأذيع فقال له ماتياس وقد أطرحه قطيعة الاتيين ؛ سأذيع الخبر فاطمئن يا ابن عمي العزيز . وودع كلاما الآخر ، ودرجت بسا المركبة في طريق واينبرج ثم عرجنا على الجبل .

ولما انتحدر من الجبل الزدان بالكوم إذا برهط من السيدات الأثيمات والسادة المشهدين بلقونا في الطريق ، ونلم منهم أنه في مثل هذا اليوم من كل أسبوع يدور الحديث والرقص في البهو الفسيح في تلك الدار القائمة في أعلى الجبل . فلما دخلنا البهو أفتينا مكتظا بالرافسين . وعلى حين غفلة ساد السكون ودخل في حلقة الرقص رجل مديد القامة ، قد ألف جسده بثلاثة حيناً اتفق ، لكن شكلته كانت تسترعى النظر . وعصب رأسه بمصانبة من القماش

فيها على رءوس الأشتاد أن لا غش ولا خداع في هذه الظاهرة ، بل إن الحيوان فضيلة من فضائل الخيل ، عجيبة غاية في العجب ، لم تعرف قبل الآن . وقد فرأت أخيراً في صحيفة من صحف براين أن هذا الحيوان قد بيع بثمن باهظ ، وأن العلماء الطبيعيين يكفون الآن أذهانهم سعياً وراء حقيقته ، ويشتنون فيه أغرب البحوث .

وسر أحد السادة المحضون في طلب ناست حتى عمر عليه وأخضره ، وداعيه مداعبة قوية شديدة الوطأة في شأن فرس البحر الأمريكي . فلم يذكر ناست اسمه ، بل أنشأ بقص حكايته كما قصها القروي ابن عم مانياس ، ومانياس نفسه بمخاطبتها تقريباً ، مرتاح البال .

وقال الدكتور : إن أسخر من أجل الفرس الأمريكي لاسوء العلماء ، ولم أن يسخرُوا من أسفه في فيسخرُوا من أجل أنفسهم ، وشأنهم في هذا شأن الأطباء الذين روجوا لفساد أنفسهم ، وليس البتة من صلة بين هذه الأدوية والأدوية .

وسرى هذا القول عن ناست حتى غفر لمانياس حكايته عن فرس البحر الأمريكي ، أولئك لم يعرف أن مانياس هو الذي قصها على الدكتور جيلين . وقد استمع حينئذ متوددا إلى قطيعه ، لكنه لم يبرأ الأبل الذي كان عندئذ في أوان السفاذ ! لكن أرنته طبل لنا ، وأطلق مدفعاً ، وهرش حماره حين سأله مانياس كم سنة يبيت ؟ هرش بمخافه هرشة واحدة كأنما يقول له : ستعيش سنة واحدة فقط كلما قلى وهم . فهل كان هذا تديراً مقصوداً من ناست ، أو أن الحمار - وهو عراقي - قيل أن مانياس قريب لذلك القروي الذي لسكره في فرانكفورت ، فأحب أن ينتقم منه بالتدليل له بأن الباقي من عمر سنة واحدة لا حيلة لنا في هذه السألة ولابد من تركها بلا جواب .

محمد المرسوفي

طريقة موزونة ، ووقف الناس من حولها ينظرون . وبعد انتهاء الرقص قادها إلى أنها يهجم بالشكر ، واختفى في البهو كما حضر سرباً وعلى غير انتظار .

لودت أن أتبع الرجل إلى جوف السفاة لولا أن احتجزني مانياس ، واقتادني إلى غرفة مجاورة للبهو فيها رجل يقول إنه قدم إليه قدحاً من الحمة بدلاً من سم منه حكاية فرس البحر الأمريكي . وقد دعني إليه بقوله لي إنه يعرف أبي ، وإنه رجل رضى الخلق ، لا حاجة لي إلى تهيبه . وسرعان ما انضم إلينا الصياد ناست . فهو مدير هذه الحانة ، وقد جانا ناست بكتاب حافل بشهادات من ذوى القامات الرفيعة ممن أعجبهم فنون حيوانه . وطلق بقص علينا من ملاحظتها أن أكلة ، وكان إذ ذاك يطلب السفاذ ، ولا يجرؤ إنسان على الاقتراب منه ، سدد إليه أخيراً قروله وكان على وشك أن يذك به ، لولا أن سدد إليه هو القروله فوققه وألزمه مطاعته ، واعتلى صهوة حماره ، وألقى القروله بطل ! وهنا قال صديق والذي لم يسم : وأطلق القروله وفرس البحر الأمريكي - ثم انطلق مقفها وهو يقول : آه يا سيدي ناست !

فرجاء ناست أن يسكت عن ذكر هذا الحيوان ، فلم يعد في قطيعه ولم يعد يسلكه . وابتعد بكتابه ، واختفى من البهو .

وكان السيد القريب الذي أمسك إذ ذاك بيدي وكان حقاً من معارف والذي - كان الدكتور جيلين الطبيب والعالم المعروف في فيلبرون . وقد كان ما زال مبتهجا تشقه قصة مانياس عن فرس البحر الأمريكي . وعاد مانياس بقص حكاية ابن عمه وورد أقواله في لهجة فكاهة أثار الضحك بين الحضور .

قال الدكتور جيلين عندئذ : هكذا شأننا دائماً نحن العلماء ، فقد أتى بلوميناخ محاضرة عن هذا الحيوان ، أعلن